(٢٢)

الشيخ محمد الحامد

رَجُلُ العِلْمِ وَالتَّقْوى وَالجِهَادِ

بسم الله الرحمن الرحيم

حدّثنا الفتى صادق أمين قال:

صحبتُ أبي في رحلة ممتعة مع بعض أصحابه العلماء، إلى بستان جميل من بساتين مدينة حماة الجميلة، ولم أكن الفتى الوحيد في تلك الرحلة، بل كان معنا عدد من الفتيان، ممن هم في مثل سنّي، أو أكبر أو أصغر مني قليلاً.

عرفتُ من أولئك العلماء: الأستاذ نعسان، والشيخ سعيد، والدكتور أحمد، والأستاذ فارس، والحاج حاتم، والشيخ محمود، ولم أعرف سائرهم إلا بعد أن توغّل هؤلاء الأفاضل في الحديث المتشعّب، فعرفت الشيخ عبد المعزّ، والأستاذ الشاعر محمداً وسواهما.

جلسنا على بساط أخضر من العشب المخمليّ، ثم قمتُ مع أترابي من الفتيان نسعى بين أيدي علمائنا الأفاضل، نخدمهم، وننفّذ أوامرهم، ونسقيهم القهوة والشاي الأحمر والأخضر، ونسعى لراحتهم وإدخال السرور إلى قلوبهم الكبيرة.

كانت أصواتهم تملأ جوَّ البستان في اختلاط عجيب، كاختلاط أصواتنا عندما نكون في رحلة، ولكنّها لم تلبث أن هدأت، وسمعتُ أحدهم يطلب من الشيخ سعيد، أن يحدثهم عن الشيخ محمد الحامد رحمه الله، فأسرعت نحوهم، ووضعت المسجّل أمام الشيخ سعيد الذي انطلق يقول بصوته الهادئ الدافئ:

ـ كان الشيخ الحامد من أورع خلْق الله فيما أعلم، شهد بذلك كلُّ مَنْ

عرفه، ومن هؤلاء الأفاضل، الأستاذ عصام الذي قال عنه:

«إنّ الشيخ الحامد، رحمه الله، هو شيخ حماة، وشيخ سورية، ولا أعرف ولا أعلم ولم أسمع عن شخص في مشرق الدنيا ومغربها، أورع من الشيخ الحامد».

ابتدأ الشيخ الحامد حياته سلفياً، فقرأ الكثير لابن تيمية، ثمّ استقرّ على مذهبيّة سلفيّة تتمسّك بالنصوص، وعلى تصوّف فقهيّ يتقيّد بالفقه. كان آية في التحقيق العلمي، وكان متشدّداً في الفتوى، وكان لا يفتي إلا إذا درس ودارس واطمأنّ.

وكان ناصحاً مشفقاً يحسُّ كلُّ مَنْ عرفه بشفقته ورحمته وخلوص نصيحته، لا يقابل السيّئة بمثلها. وكم كان حريصاً على وحدة المسلمين، فهو لا يرى أنّ هناك تناقضاً بين المسلمين يبيح لهم أن يدخل بعضهم في خصومات مع بعضهم الآخر، وينسوا الردّة والمرتدّين.

وكان بحراً في العلوم الشرعية، لا تطرق باباً من أبواب العلم الشرعيّ إلا كان المقدَّم فيه، وكان بحراً في علوم العقيدة والفقه والتصوّف والتفسير والحديث والأصول والتاريخ الإسلامي.

وكان أديباً وكاتباً وشاعراً وخطيباً فصيحاً.

وكان عارفاً بعصره، عارفاً بأنواع الضلال فيه.

وكان حسّاس النفس، كريمها، عفّ اللسان، متأدّباً مع العلماء.

صادق: عفواً يا عمي.. هل كان الشيخ الحامد كما وصفت مع الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله؟

سعيد: طبعاً كان كذلك يا ابني.. اقرأ كتابه: (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام) للسباعي.. فإنك لا تجد أروع من ذلك.. يردُّ وهو في أعلى درجات الحب. وكم أرجو أن يأخذ كلُّ مسلم من ذلك درساً.

وكان الشيخ الحامد ـ رحمه الله ـ يخشى على عقائد المسلمين،

وسلوكهم، فإذا رأى فكرة خاطئة لم ينم حتى يطمئن أنه قام بواجبه نحو الله فيها.

صادق: كيف؟

سعيد: إذا قرأ جريدة أو مجلة، فرأى خطأ، أو جاءته رسالة تُشْعره بخطأ، أو عرف أنّ هناك خطأ ينتشر - صال وجال، حتى كادت بعض مواقفه تودي بحياته أو بوظيفته التي يعتاش منها، وكم من مفاهيم صحّحها، وضلالات في الاعتقاد والسلوك دفنها.

صادق: وكان الناس يستجيبون له؟

سعيد: أجل يا ولدي.. كان الناس يثقون به ثقة لاحدود لها، فإذا قال للإخوان المسلمين شيئاً، قالوا: سمعاً وطاعة، وإذا قال للصّوفيين شيئاً، أخذوا به، وتركوا ما ينبههم إليه، وإذا قال للسلفيين شيئاً، قبلوه منه؛ لأنه كان يأتي مع الكلمة بدليلها. وكان لا يسكت على مخطئ يقول أمامه كلمة، بل كان ينصح ويصحّح. فكم صحّح لغة، وكم صحّح بيت شعر فيه غلوٌّ أو خطأ يقوله منشد.

محمود: كان الداعي لوالدي - رحمه الله تعالى - في كلّ كتاباته، هو الردّ على ما يرى من الانحرافات عن شرع الله جلّ وعلا، والحضّ على الاستقامة على صراط الله القويم، ونقض الأباطيل التي تظهر على أيدي الزائغين.

وسكت الشيخ محمود لحظات كأنه كان يتذكر شيئاً، أو يتردّد في رواية أمر، فاستحثّه والدي على الكلام، فرفع رأسه، وشرد بعينيه. ثم قال:

- كان والدي - رحمه الله تعالى - يروي لنا رؤيا لطيفة حصلتْ له في مطلع شبابه، تشير إلى ما فطره الله تعالى عليه من الاستقامة على شرع الله تعالى ومقاومة الباطل.

رأى نفسه في المنام، أنه عند قبر الرسول ﷺ، يزيل أشياء غير لائقة وجدها عند المقام الشريف. فقصَّ رؤياه هذه على أحد مشايخه، فقال له:

«إنك ستذبُّ عن هذا الإسلام أشياء ليست منه».

وبالفعل.. كان هذا دأبه ـ رحمه الله ـ في حياته، حتى أرهق نفسه.

صادق: لماذا أرهق نفسه يا عمّي؟.

محمود: لأن الصحف والمجلات كانت، وما تزال، مليئة بالأباطيل والجهالات والأسواء التي ينعق بها دعاة على أبواب جهنم، وهي من الكثرة والتتابع بحيث يضيق عنها وبها جمعٌ غفير من العلماء، إلا أن يكتب الله لهم عونه وتأييده، فضلاً عن أن يقوم بها شخص بمفرده. لكنّ فضل الله تعالى على بعض عباده ممن يختارهم لنصرة دينه على مرّ الأزمان، فوق الحسابات والتقديرات. وكثيراً ما كان والدي ـ رحمه الله تعالى ـ يروي لنا في هذا المقام، الحديث الشريف:

«يحمل هذا العلمَ من كلّ خَلَفٍ عُدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المُبْطلين».

والتفتُّ إلى الشيخ سعيد، وسألته عن عبادة الشيخ الحامد وعن ورعه وتقواه فقال:

حدِّث عنهما ولا حرج.. فقد كان دائم التلاوة لكتاب الله، مداوماً على الذِّكر اليوميّ، مقيماً لحلقات الذّكر، مع تحرير ذلك كلّه ممّا يقرؤه أهل العلم. وهو ـ مع هذا ـ غزير الدّمعة، كثير البكاء، ولم أر بين علماء المسلمين ممن رأيت وقابلت، ممن ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨]، إلا شيخنا الحامد، وشيخنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة.

ما شاء الله! ما شاء الله!.

وتابع الشيخ سعيد قائلاً:

ـ كان رحمه الله مستوعباً لمذاهب أهل السنّة والجماعة في العقائد والفقه والسلوك.

وتنحنح الدكتور أحمد، إيذاناً بالكلام، ثم قال:

ـ ونظرة إلى كتاب: (ردود على أباطيل، وحقائق علميّة) تجد أن الشيخ يجيب السائل بما يروي الغليل، ويشفي العليل، سائقاً على إجابته الأدلة، دليلاً تلو دليل، حتى تتبدّد الحيرة، ويتضح السبيل، ملتزماً بالكتاب والسنة. ومذاهب الأئمة، ومقتضيات العصر، دون التعدّي لحدود الله، وكان يكثر من القول: «أجرؤكم على الفتيا، أجرؤكم على النار».

محمود: هذا حديث شريف.

أحمد: نعْم. وكان الشيخ يقول: «من أفتى بغير علم فقد ضلَّ وأضلَّ».

ولذلك، كان الشيخ يوجّه بعض من يسأله الفتيا إلى غيره من العلماء المختصين بالمذاهب، عندما يدرك أن قضيّة السائل، جوابُها في مذهب غير مذهب الشيخ، وهو المذهب الحنفي.

صادق: لماذا؟ ألم تقولوا: إنه عالم بالمذاهب كلّها؟.

أحمد: كان منهج الشيخ الأخذ بالأحوط، كما كان يأخذ نفسَه بالعزائم، بينما يرى التيسير فيما يختصّ بغيره، مع حرصه على مبدأ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه».

والتفتُّ إلى الشيخ سعيد أستزيده، فقال وهو يبتسم ابتسامته العذبة:

ـ كان الشيخ الحامد مستوعباً لعقائد الفرق الضالة، عارفاً حقائقها، وكان درّاكاً لضلالات العصر، عارفاً ببدع الاستغراب، عارفاً بوجهات المستشرقين والمستغربين، ولذلك كان كثير التصويب لمن يسمع لهم. ومن هنا، كان لا يستغرب من عايشه أن يصحّح له الكثير في الجلسة الواحدة. حتى إن الشيخ الحامد سجَّل على محاضرة من محاضرات الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ إحدى عشرة ملاحظة.

صادق: وفاتح بها الأستاذ الإمام الشهيد البنا؟

سعيد: طبعاً فاتحه بها، وسلّمه إياها.

صادق: وماذا كانت ردّة فعل الأستاذ الإمام البنا؟

سعيد: أخذ الملاحظات، وفي المحاضرة التالية - وكانت محاضرته هذه هي من أحاديث الثلاثاء - أقول: في المحاضرة التالية، أعلن الأستاذ البنا لجماهير الحاضرين، أنّ الشيخ الحمويّ لاحظ عليه كيت وكيت، وأن الحق معه في كيت وكيت.

صادق: من حدّثكم، يا سيدي، بهذه الواقعة؟

سعيد: الشيخ الحامد نفسه.. وقد رواها لنا مزكّياً الأستاذ البنا الذي كان - على عظمته - لا يستنكف أن يعلن أمام الملأ أجمع، أنه أخطأ، إذا كان فعلاً قد وقع في الخطأ.

صادق: هل هذا كان رأي الشيخ الحامد بالأستاذ البنا؟

سعيد: وكان يرى أن حسن البنا مجدّد قرون، وليس مجدّداً لهذا القرن فحسب، وقد واطأه على هذا الأستاذ أبو الحسن الندوي.

فارس: هل كلام الشيخ الحامد، ينفي وجود مجدّدين في القرون الخالية يا شيخ سعيد؟

سعيد: لا.. بل نوعية التجديد كانت من السّعة في دعوة الأستاذ البنا، بحيث شملت جوانب، واستهدفت أهدافاً لم تتطرق إليها دعوات التجديد في بعض القرون السالفة.

صادق: هل كان الشيخ الحامد من الإخوان المسلمين!.

سعيد: لا.. لم ينتسب إلى الإخوان المسلمين، مع أن الشيخ رحمه الله. كان أفتاني وأفتى عدداً من الإخوة بوجوب العمل مع الإخوان، بل افترض علينا فرضاً عينياً أن نعمل مع الإخوان.

صادق: إذاً.. كيف يأمركم بشيء ولا يفعله؟.

سعيد: لضرورة المصلحة الإسلامية.. حتى لا يحمّل الجماعة مسؤولية بعض الفروض الكفائية، وهو يتحمّلها بنفسه، وكان الشيخ يقول:

«أنا أحبُّ الإخوان، وأحرص عليهم، وأوالي نُصْحَهم. ولكنَّ عملي مع الإخوان يَحُوْل دون تحقيق بعض الفروض الكفائيّة».

فابتسم والدي وقال:

ـ هذا الموقف من الشيخ الحامد ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ يذكّرني بحادثة الأستاذ أحمد قنبر الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية في حكومة حزب الشعب.

فارس: اذكرها لنا، فقد أنستنا الأيام تاريخ بلادنا.

الوالد: أراد الأستاذ أحمد قنبر أن يوجّه انتقاداً شديد اللهجة لبعض قادة الجيش، فحضر جلسة مجلس النواب، ثم طلب الكلام، وقام خطيباً في النواب، فأعلن أولاً انسحابه من حزبه (حزب الشعب) وأنه هو وحده يتحمل مسؤولية الكلام والآراء التي سيدلي بها، ثم هاجم قادة الجيش هجوماً صاعقاً، فذكر تقصيرهم، وبذخهم وإسرافهم، وسوء تصرُّفهم بالمال العامّ، إلى آخر ما هنالك من انتقادات تحمَّلَ هو مسؤوليتها، ولم يحمّلها حزبه. وكذلك فعل الشيخ الحامد رحمه الله.

فارس: مع الفارق الكبير بين الرجلين، وبين الحزب والجماعة.

صادق: هل يعرف أعمامي ـ يا أبي ـ أني فضوليٌّ، وأحبّ أن أعرف كلَّ شيء؟.

الوالد: بل يعرفون عنك ـ يا ولدي ـ أنك فتى مثقّف، وصاحب دين، وتحبُّ أن تعرف الكثير عن نجوم الإسلام، منذ عهد الصحابة البررة، إلى أيامنا هذه. فسَلْ أعمامك العلماء هؤلاء ما تريد، وسوف تلقى منهم كلَّ ترحيب.

أحمد: تفضّلْ يا صادق، واسألْ عمّا تريد، فنحن كما قال أبوك الفاضل.

صادق: أريد أن تحدّثونا عن الشيخ الحامد.. عن حياته.. عن

تعليمه . . عن كلّ شيء في حياته .

فاتّجهت الأنظارُ إلى ولديه الشيخ محمود والشيخ عبد المعزّ، فبادر الشيخ عبد المعزّ يطلب من أخيه الشيخ محمود أن يتحدث، فاستجاب الشيخ محمود في حياء جمّ، وتواضع عجيب، وقال:

ـ لي تعليق بسيط على ما قاله الشيخ سعيد، بشأن انتساب والدي إلى جماعة الإخوان المسلمين . .

في أثناء وجود الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ في مصر للدراسة، تعرّف إلى الإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله تعالى ـ واستمرّ معه أربع سنوات، كان يحضر محاضراته، أو ما استطاع الحضور منها، وخاصة أحاديث الثلاثاء، وقد تعرّف الوالد على جماعة الإخوان المسلمين . وصار فرداً من أفرادها، وصديقاً حميماً لمرشدها، وله مع الإمام البنا مساجلات كثيرة، يضيق الوقت عن ذكرها في هذا المقام .

فانبرى الدكتور أحمد يقول بحماسته المعهودة :

ـ وأحبُّ أن أضيف أنّ الشيخ الحامد ـ رحمه الله تعالى ـ شارك في تأسيس أول مركز لجماعة الإخوان المسلمين خارج القطر المصري . .

أسسه في مدينة حماة سنة ١٩٣٨م مع كل من الشيخ الشهيد عبد الله الحلاق، والشيخ منير لطفي، والشيخ منير الحوراني، والأستاذ عبد الغني الحامد، والأستاذ عبد الغني الساعاتي ـ رحمهم الله جميعاً، وراحوا يعرّفون الناس على مبادئ الدعـوة، ويشرحون أهدافها، ويمهّدون السبيل أمام المسلمين ليستردّوا حرية أوطانهم، وتخليصها من الغاصبين الأوروبيين المستعبدين، ولتطبيق الشـريعة الإسلامية، لتنعم الأمة بالوحدة والأمن والحرية والعدل والسلام؛ فالإسلام ليس تلك الشعائر التعبّديّة فحسب، بل هـو روحٌ يسري في قلب هذه الأمة، فيحييها بـالقرآن، ونـورٌ يبدّد ظـلام المادّة، ونظامٌ شاملٌ ينظم شؤون الحياة جميعاً؛ فهو دين ودولة، ومصحف وسيف، وعقيدة ووطن، وعبادة وجنسية، وعمل وروحانية .

لقد بيّنوا لنا ولأبناء حماة المجاهدة ملامح دعوتهم فقالوا:

- إنها دعوة سلفية، وطريقة سنيّة، وحقيقة صوفيّة، وهيئة سياسيّة، وجماعة رياضيّة، ورابطة علميّة، ذات أهداف ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية.

وقالوا لنا:

من أخصّ خصائصها: البعد عن مواطن الخلاف، والنأي بالجماعة عن هيمنة الأعيان والكبراء، والبعد عن الأحزاب الوضعيّة والهيئات الفئوية، والعناية بتكوين الفرد المسلم، والتدرّج في الخطوات، وإيثار الجوانب والنواحي العملية الإنتاجية، على الدّعاية والإعلان والكلام.

وأعلنوا على الناس مبادئها الخمسة: «الله غايتنا، والرسول زعيمنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

صادق: هل كانت دعوة الإخوان المسلمين محصورة ضمن مدينة حماة؟

أحمد: نعمْ.. إلى أن التقت مع الجماعات والجمعيات الإسلامية في حمص وحلب ودمشق ودير الزور واللاذقية على مبادئ الجماعة وأهدافها، ثم كانت البيعة للمرشد العام الأستاذ البنا، وكان تكليف الدكتور الشيخ مصطفى السباعي أول مراقب عام للإخوان في سورية عام ١٩٤٥م.

فارس: بل عام ١٩٤٤م.

أحمد: فهل تستطيع أن نقول: إن الشيخ الحامد ـ رحمه الله ـ لم يكن من الجماعة؟ إنه كان شيخها، وإن كان يظهر أمام الناس بأنه مجرّد صديق لها ولقادتها ولأبنائها.

صادق: عفواً يا سادتي وأعمامي الكرام.. هل نستطيع أو هل يستطيع أحدكم تلخيص حياة الشيخ الحامد في هذه الجلسة المباركة؟

ابتسم أعمامي الفضلاء، وأشار بعضهم إلى الشيخ محمود الذي كان

كأنه يخشى من أن يُكلَّف من جديد، بالحديث عن والده الشيخ الحامد، فقلت أستحثّه:

ـ أريد أن أسمع منك يا عمي الشيخ محمود، فهل تلبّي طلب ابن أخيك؟

ـ كما تريد يا بني، وإن كان أعمامك هؤلاء يعرفون مثلما أعرف، وربما أكثر مما أعرف عن الشيخ الوالد رحمه الله تعالى.

كان الشيخ محمود يجلس طوال الوقت جلوس التشهُّد في الصلاة، ويبدو أنه تعب من هذه الجلسة، فتحرك في جلسته، وركز وضع قبعته فوق رأسه، ثم شرع يقول:

ـ كانت ولادة الشيخ الوالد في مدينة حماة بين العيدين: الفطر والأضحى عام ١٣٢٨هـ ـ الموافق ١٩١٠م لأبٍ تقيّ صالح عالم، أوتي حظاً من العلم والطريق هو الشيخ محمود الحامد ـ رحمه الله تعالى ـ ثمّ ما لبث الشيخ محمود أن توفي في جوائح البؤس والمرض والفقر.. التي عمّت بلاد الشام، إبّان الحرب العالمية الأولى، ففقد والدي بوفاته أعزّ مستمسك له في نعومة صباه. ثم توفيت بعد ذلك أمُّه السيّدة كوكب الجابي بفترة يسيرة، فعاش يتيم الأبوين، مع أخيه الأصغر عبد الغني، يرعاهما أخوهما الأكبر بدر الدين، الذي كان في الخامسة عشرة من عمره عند وفاة أبويهم، فكان لهما نعْمَ الأب والمربّي والمهذّب. وما زال والدي يذكر فضل أخيه بدر الدين عليه حتى فارق الحياة.

صادق: رحمهم الله جميعاً.. ولكن.. كم كان كان عمر الوالد الشيخ عندما توفّي أبوه؟.

محمود: ست سنين.. وقد قاسى الكثير من بؤس اليتم، وشظف العيش، وقد حدَّثنا من صور معاناته في طفولته وصباه الشيء الكثير، مما تذرف له الدموع، وتنفطر من ذكره القلوب.

صادق: ولهذا أوصى الرسول القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ باليتيم.

محمود: نشأ في مبدأ حياته خياطاً، ثم دخل دار العلوم الشرعية في حماة، فكانت بداية التحول الخطير في حياته، إذ سلك سبيل العلم الشرعي، وبعد أن تخرج فيها، انتقل إلى المدرسة الخسروية (الكلية الشرعية الآن) في حلب، وكانت هذه المدرسة، كما وصفها والدي رحمه الله تعالى، تعدل الأزهر في مصر، ثم تخرّج فيها وهو في السادسة والعشرين.

صادق: إذاً.. كم كانت سنّه عندما درس في الأزهر؟.

محمود: التحق بالأزهر وهو ابن تسع وعشرين سنة.

صادق: وكم سنة درس في الأزهر؟.

محمود: ست سنين.. في السنوات الأربع الأولى نال الشهادة العالية في الشريعة، ثم تخصص في القضاء الشرعي سنتين.

صادق: إذاً.. عاد إلى حماة وهو في الخامسة والثلاثين؟.

محمود: نعمْ.. وتزوّج بعدها بفترة يسيرة، من بنت عالم حماة الشيخ الزاهد والعالم العامل أحمد المراد الذي كان يحسبه الناس من أولياء الله تعالى المعروفين الذين جمعوا بين العلم والطريق.

صادق: يعني.. تزوج سنة ١٩٤٥م.

محمود: بل سنة ١٩٤٤م، ثم استلم التدريس والخطابة في جامع السلطان في حماة، كما استلم بعد رجوعه من مصر، تدريس مادة التربية الإسلامية في مدرسة التجهيز الأولى التي صار اسمها - فيما بعد - ثانوية ابن رشد.

أحمد: ولكنّ الشيخ - رحمه الله - كان يتصدق بما يأخذه من الأوقاف عن وظيفتي التدريس والخطابة في جامع السلطان، مكتفياً براتبه من وزارة المعارف عن تدريسه مادة الديانة.

صادق: عظيم.. هذا العمل رائع، ويدُلّ على زهد حقيقيّ.

فارس: الحقيقة.. أنّ حياة الشيخ ـ رحمه الله ـ بدأت بعد عودته من مصر.

محمود: بل نستطيع أن نقول: إن الفترة الذهبية في حياته، كانت منذ عودته من مصر، حتى وفاته.

سعيد: هذا صحيح، ولكن.. لماذا؟.

محمود: لأنها تميّزت بالجهاد الدائب، والعمل المتواصل، وامتازت بثلاثة مظاهر، أولاً: ثباته في مواجهة مظاهر الإلحاد.

صادق: كيف؟.

محمود: لم يخرج المستعمر حتى خلّف وراءه مَنْ يرثه في فكره وعاداته وأسلوب حياته، وكان من هؤلاء ملاحدة جاهروا بعدائهم للإسلام بشكل لم يكن المستعمر يجرؤ عليه، وتشكلت أحزاب علمانية مزّقت الأمّة، فتصدَّى الشيخ لهم، وخاصة الاشتراكيين الحورانيين منهم.

صادق: وكان وحده؟.

محمود: كانت جماعة الإخوان معه، تؤازره وتقف إلى جانبه.

صادق: والعلماء؟ أين كان المشايخ؟.

محمود: الصادقون المخلصون منهم كانوا معه، والسائرون في ركاب السلطة، كانوا ضدّه، وكان الشيخ يدعوهم ويسمّيهم مشايخ السلطان.

صادق: وأنا وإخواني ندعوهم: مشايخ الشيطان.

سعيد: لماذا يا بنيّ؟.

صادق: لأنهم عرفوا الحقَّ وحادُوا عنه.. تركوا زميلهم الشيخ الذي يصدع بالحقّ، وساروا مع التيّار المنحرف.

سعيد: بارك الله فيك يا بنيّ.

محمود: كلامك صحيح يا صادق، فقد كان أولئك المشايخ من

أصحاب الوجاهة الدينيّة، وكان ضررهم كبيراً، فقد اغترَّ بهم العامّة . . اغترّت العامّة بمواقفهم الذّميمة منذ عهد الاستقلال وحتى الستيّنيّات، عندما أفاق الناس على رذائل الأنظمة البعيدة عن دين الله تعالى، بعد أن اكتوَوْا بنارها، فعاد الشيخ ليكتسح الساحة بفضل الله تعالى، ثم بفضل إخلاصه وثباته، وحرارة صدقه، وتوهُّج إيمانه، وتوقُّد عاطفته، ودفء حنانه، حتى تكوّن له جيل من التلاميذ المخلصين، الأوفياء لدينهم، كأعمامك هؤلاء، وغيرهم كثير، وقفوا إلى جانب شيخهم في سائر الأحوال.

سعيد: هذا أولاً . . وثانياً؟.

محمود: ثانياً: كتاباته ومؤلَّفاته التي كانت تظهر حسب تداعيات الظروف والأحوال.

صادق: كيف؟.

أحمد: اسمحْ لي يا شيخ محمود لأريحك قليلاً.

محمود: تفضّلْ يا دكتور.

أحمد: لم يلتفت الشيخ - رحمه الله - إلى التأليف وإصدار الكتب وطباعتها وتسويقها، ولم يُعِرْ ذلك اهتماماً، مع توفر الإمكانات العلميّة، والقدرات الكتابية، ليكون مؤلفاً مُكثراً يبزُّ الأقران، ويسابق المفكرين، إنما كانت عنايته واهتمامه في تربية الشباب، ونشر العلم بين مريدي الحقّ وطلاّب الحقيقة، وفي تنبيه الناس إلى ضرورة العمل لإعادة عزّ المسلمين الضائع، ورَجْعِ الخلافة، ووحدة المسلمين . . كان الشيخ - رحمه الله - لا يترك فرصة تسنح دون أن يُلقي بثقله في هذا الموضوع، . إلى جانب تصحيح المفاهيم الإسلامية التي يحاول الغرب قبل الاحتلال وفي أثنائه وبعده - طمسها وإزالة معالمها على أيدي أذنابه.

اضف إلى ذلك، أن الشيخ ما كان ليترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في كل الظروف والأحوال، ومهما ترتَّب على ذلك من نتائج. فانحصر إنتاجه العلميّ في الردّ على الأسئلة والفتاوى التي ترد إليه

من أقطار بعيدة، وبلدان شتّى، وكذلك في الردّ على مقالات فيها أخطاء شرعية، أو تحامل على الإسلام، أو على فتاوى زائغة لم تستند إلى علم، أو كان صاحبها يروّج فيها لأفكار هدّامة، أو للخروج عن الجادّة. وكلُّ ذلك بأسلوب علميّ رفيع مقرون بالأدلّة، وبأدب جمّ، وإخلاص فريد، متوخّياً الوصول إلى الحقّ، دون أن ينال من شخص بعينه، بل يراعي قلب السائل أو الكاتب، دون المساس بشخصه أو بعلمه، ممّا يمهّد السبيل لقبول التصحيح، وإزالة المنكر، من غير أن يترتب عليه منكر أعظم منه.

سعيد: يا سلام: بارك الله فيك يا دكتور أحمد، فما كان الشيخ الزاهد ليدع كلَّ هذه المعاني، ويلتفت إلى التأليف.

أحمد: ومع ذلك، ألّف بعض الكتب والرسائل أذكر منها:

١ ـ (ردود على أباطيل، وتحقيقات علمية)، طُبعَ منه جزءان.

عبد المعز: والثالث على الطريق بإذن الله.

أحمد: ٢ ـ (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام). ردّ فيه على الدكتور السباعي، رحمه الله.

فارس: ولكنه ردٌّ حسن. قال لي الشيخ الحامد رحمه الله:

«الشيخ مصطفى السباعي لا يُشكُّ في علمه، ولا في قصده».

وقد كلّفني الشيخ أن أحضر له ردَّ الدكتور السباعي رحمه الله على كتابه (كتاب الشيخ آنف الذكر)، فقال لي السباعي: «إن شاء الشيخ أن أنشره له في مجلة الحضارة» لكنّ الشيخ الحامد أبى ذلك، إلا أن ينشر في كتاب منفصل مستقل.

نعسان: روى لي الدكتور محمود تلميذ السباعي قال:

«كنت في زيارة لأستاذنا الدكتور السباعي رحمه الله، وزاره أستاذنا الشيخ محمد الحامد، وذكر له أنه يخالفه في بعض ما ذكره في كتابه (اشتراكية الإسلام) وأنه كتب ردّاً عليه، فقال له الدكتور السباعي: «أنا فخور بأنك قرأت

كتابي، وأتشرّف بردّك عليه، ولن يطبع الردَّ إلا أنا» فقال له الشيخ الحامد: «والله إني أحبُّك، لكنَّ الحقّ أحبُّ إليّ منك».

أحمد: ما أعظم الرجلين: السباعي والحامد رحمهما الله رحمة واسعة.

محمود: كانا أخوين حميمين، لم يفرّق بينهما إلا الموت.

أحمد: ٣ ـ (حُكم نكاح المتعة في الإسلام) بيَّن فيه حرمة هذا النكاح، وأنه الزّنى بعينه.

٤ ـ مجموعة رسائل هي:

أ ـ (حكم الإسلام في الغناء).

ب ـ (رحمة الإسلام للنساء).

جـ ـ (حكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية).

فارس: سمعت الشيخ يقول: إن هذه الرسالة قد كلفته من الجهد أكثر مما كلّفه كتاب: (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام) وكان يقول: إن وراء هذه القضية مؤسسة تريد أن تشيعها بين المسلمين، وليست من جهد فرد واحد.

أحمد: د ـ (حكم اللحية في الإسلام).

هـ ـ (القول في المسكرات).

و ـ (لزوم اتباع مذاهب الأئمة).

محمود: كتب والدي كتابه (رحمة الإسلام للنساء) ردّاً على دعاوى المستغربين، الذين دَعَوْا إلى ما أسموه (تحرير المرأة) وهو ـ في حقيقته ـ إفساد لنظام الحياة الطبيعية.

صادق: لماذا؟.

محمود: لأنه إطلاق للمرأة، وتحويل لحياتها بما يشبه حياة الرجل،

بما فيها من اختلاط يدعو إلى الفساد والتّهتّك .

فارس : هنـاك كتيّب نفيـس للشيخ لم يذكره الدكتور أحمد، وهو بعنوان : (آدم عليه السلام لم يؤمر باطناً بالأكل من الشجرة) .

كان الأستاذ محمد يستمع إلى الإخوة المتحدّثين في اهتمام، ولكنّه لم ينبس ببنت شفة، وكان الأستاذ نعسان يسترق النظر إليه، ثمّ استفزّه للحديث، إذ قال له :

ـ مالك يا عميّ لا تبدي رأيك بالشيخ الحامد، وكأنك لا تعرفه؟ .

فابتسم الأستاذ محمد ابتسامة عريضة، ثمّ قال :

ـ ومَنْ من أرباب العلم والقلم والدعوة لا يعرف الشيخ الحامد؟ .

وسكت لحظة ثمّ تابع يقول :

ـ حياة الشيخ الحامد جهاد متواصل ؛ فهو منذ عاد إلى حماة، استأنف نشاطه في الخطابة المسجدية، وفي الدروس العامة التي قد بدأها من قبل، وأقبل عليه طلبة العلم الشرعي يتلقفون معلوماته، ويقتبسون عنه مبادئ السلوك والأخلاق . . ومالبث إلا قليلاً حتى أحرز مودّة الجميع، وتقدير الكافّة، سواءٌ في ذلك علماؤهم وشبابهم ونساؤهم وعامتهم .

نعسان : يا سلام ! .

محمد : وقد ضاعف من أثره، ومن تقدير الكافة له، ذلك الدأب الذي تميّز به في خدمة العلم ؛ فدروسه لم تنقطع قطُّ، سواءٌ في المدرسة أو المسجد أو البيت، لا يكاد يفرغ من جانب، حتى ينتقل إلى الآخر، ولا يشغله عن ذلك شاغل، إلا الأحوال الملزمة، كالنوم والطعام والمرض، فإذا ما وجد فسحة بين هذه الأعمال، لجأ إلى القلم ينشئ ردّاً، أو يجيب على استفتاء، أو يدبّج رسالة، أو يراجع كتاباً .

صادق : يا سلام ! . تلخيص بديع لحياة الشيخ رحمه الله . ولكن لي سؤالاً يا فضيلة الأستاذ .

محمد: تفضّل يا بني. اسأل.

صادق: أظنُّ ـ وبعض الظنِّ إثمٌ وليس كلُّ الظنِّ إثماً ـ

ضحك أعمامي الأفاضل من هذا الفتى الذي يتفلسف أمامهم، وهم العلماء الأفاضل، حتى لجمني ضحكهم هذا، ولولا أنّ فضيلة الأستاذ محمد استدرك الأمر بدعابة لطيفة، لولَّيْتُ هارباً، ولخسرتُ هذه الجلسة التي يتمنّاها كلُّ متتبِّع لحياة عظماء هذه الأمة. قلت:

ـ أظنُّ أنّ انشغال الشيخ على هذه الصورة، كان على حساب أهله.

فقال الأستاذ محمد:

ـ لا يا بنيّ، لم يكن على حساب أهله، وهذا من جملة ما امتاز به على الكثيرين من المشايخ والعاملين في خدمة الدعوة.. الشيخ لم يقصر عطاءه على الناس ويهمل آله، بل جمع بين الحسنيين، فكان له من تلاميذه الكثر أحسن الغراس التي شرعت تؤتي أكلها تحت عينيه، وكان له من أبنائه السبعة خير وارث لعلمه واجتهاده وفضائله، حتى امرأته لم يدَّخر وسعاً في تزويدها بكلِّ ما ينفع النسوة المؤمنات من العلم النافع، فكان مجلسها لا يخلو من توجيه إلى خير، وإجابة على سؤال.

أحمد: كلامك سليم جدّاً يا أستاذي.

محمد: وقد زاد مكانه رسوخاً في قلوب الحمويين ما يعرفونه من زهده، وإخلاصه، وصدق لهجته، وصلابته في كل ما يعتقد أنّه الحق، ثمّ مشاركته إياهم في مكافحة الاستعمار، وإلهابه المشاعر بحبّ الجهاد، لتطهير البلاد من أرجاس المحتلين، وإيثار الشهادة مع العزّة، على الحياة الخانعة الذليلة.

صادق: تعني الاستعمار الفرنسي يا سيِّدي؟.

محمد: نعمْ يا بنيّ، وعند أعمامك الحمويين هؤلاء الخبر اليقين.

أحمد: نعمْ يا صادق.. فقد ساهم الشيخ ـ رحمه الله ـ في بثِّ روح

الجهاد والثورة على المستعمر الفرنسي عام ١٩٤٥م ما دفع أهل حماة إلى الثورة المسلّحة ضدَّ الفرنسيين، شاركتْ فيها شرائح الشعب المختلفة، بما فيها رجال الأمن والدرك السوري (يعني الشرطة) ممّا اضطرّ المستعمر الغاشم إلى الانسحاب من سورية، بعد أن زرع مجاهدو حماة الأشاوس، مدخل المدينة الجنوبي بأشلاء جنوده، وحطام دباباته ومدرّعاته، ونالت سورية استقلالها.

صادق: الله أكبر!!.

أحمد: وكان الشيخ رحمه الله، من أوائل مَنْ وصل إلى ثُكنة الجيش الفرنسيِّ المتمركز في (الشَّرفة) غربي حماة، ورفع الأذان من أعلى مكان فيها.

صادق: الله أكبر.. الله أكبر.

وشاركني أعمامي في التكبير والتهليل، إعجاباً بالشيخ المجاهد، ثم قال الأستاذ فارس:

حدِّثوه عن مشاركة الشيخ في حملة التعبئة من أجل فلسطين.

فتوجه الجميع نحو الشيخ محمود، ولكنّ الشيخ محمود طلب من الأستاذ محمد أن يتابع حديثه عن الشيخ، واستجاب فضيلة الأستاذ محمد، وعدَّل من جلسته، ثم قال:

- لمّا نفّذت الصّليبية الجديدة مؤامراتها بتقسيم فلسطين، كان الشيخ الحامد في مقدمة العلماء والزعماء المثيرين للهمم، الشاحذين للعزائم. وقد وطَّنَ نفسه على مرافقة أخيه الدكتور مصطفى السباعي لخوض غمرات الجهاد، لولا تشدُّدُ إخوانه في منعه من مغادرة حماة، يقيناً منهم، أنَّ بقاءه في قلب الجمهور، أنفع للقضية من مشاركته في القتال.

وعندما سكت الأستاذ محمد عن الكلام، انطلق الدكتور أحمد يقول:

ـ لكنّ الشيخ ـ رحمه الله ـ سار على رأس المتطوّعين إلى مكان تجمُّع المجاهدين في (قطنا)، والتقى الإمام البنا . .

وقال أبي:

ـ على الرغم من أني لست حموياً، ولكني أعرف أنّ الشيخ ـ رحمه الله ـ استجاب لطلب العلماء والوجهاء والعامة، ولم يذهب إلى فلسطين، ولم يشارك المجاهدين في قتال أعداء الله والإنسانية، ولكنه لم يجلس مكتوف اليدين، بل انضمَّ إلى اللِّجان المشكَّلة لمساعدة اللاجئين الذين حلَّتْ بهم النكبة، ومواساتهم، والتخفيف عنهم، وجمع المعونات المادية لهم . . وكان يطوف على اللاجئين بنفسه لمساعدتهم، والإسهام في حلِّ مشكلاتهم، وكان يخطب في الناس، ويحثّهم على التسلُّح والتدريب، وكان يوصي الشباب، ويحضّهم على الانتساب إلى الجيش، ليكونوا ضباطاً وجنوداً في صفوفه، يحمون البلاد، ويدافعون عنها، ويسعون لتحرير فلسطين، وكان يقول: مشكلة فلسطين لا تحلُّها ولا تنهيها إلا القوة.

وقال الأستاذ نعسان:

ـ وكان الناس يستجيبون له، ويقدمون ما يطلبه منهم الشيخ . . بعضه أو كلّه أو كثيراً منه.

وقال الدكتور أحمد:

ـ وكان الناس يفزعون إليه إذا نزلت بهم نازلة، أو ألمَّت بهم ملمَّة (مصيبة) فالناس له أبناء، وهو لهم أب، يفيض عليهم رأفة ورحمة، يسرُّه ما يسرُّهم، ويحزنهُ ويؤلمه ما يحزنهم ويؤلمهم . . بل اسمحوا لي أن أزعم أنّ رحمة الشيخ التي فُطر عليها ـ تجاوزت كلَّ الخلق، حتى الحيوان، وكان يقول: «البَرُّ لا يقتل حتى الذّرّ» أي صغار النّمل.

نظر والدي نحوي، فوجدني أتململ، فعرف أنّي أريد شيئاً ما، فسألني عمّا بي، فقلتُ:

ـ شوّقتموني يا أعمامي وأساتذتي ومشايخي، إلى معرفة صورة الشيخ، فهل عندكم صورة له؟ .

فضحك السّادة العلماء من سؤالي، ثم قال الأستاذ نعسان:

ـ عندما ذهب الشيخ على رأس المتطوعين إلى (قطنا)، والتقى هناك الإمام الشهيد، أراد بعض الإخوة أخذَ صورة تذكارية للشيخين الجليلين: البنا والحامد، وعندما انتبه الشيخ إلى الأخ الذي يحمل الكاميرا ليصوّرهما، صاح فيه، وغطى وجهه بكفّه، والإمام البنا يبتسم، ولكنّ الأخ صوَّرهما معاً.

صادق: هذه صورة فريدة، فهل عندكم يا سادتي؟.

فضحك السادة العلماء من جديد، وقال الأستاذ نعسان:

ـ احترق الفلم، ولم تظهر فيه أي صورة.

صادق: لا حول ولا قوة إلا بالله.

نعسان: ولكن.. إذا أحببتَ وصفناه لك، أو وصفه الدكتور أحمد.

صادق: يا ليت.

أحمد: كان الشيخ ـ رحمه الله ـ معتدل القامة، وإلى الطول أقرب، وكان عريض المنكبين، واسع العينين، واسع الفم، واسع الجبين، أقنى الأنف، أبيض البشرة، كأنّ لحيته سلاسل الفضة، تشعّ من ثناياها الأنوار.

وكان له صوت جهوريّ متميّز يساعده على الخطابة، له نغمة حلوة في قراءته القرآن، وخاصّة في الصّلاة، تأخذ بالألباب، وتحلّق بك في ملكوت الله، وتفتح مصاريع القلوب، لتستقبل الأحوال والأنوار.

صادق: وصفٌ جميل.. ولباسُهُ؟.

أحمد: كانت ثيابه متواضعة، ولكنها نظيفة، تعبق منها رائحة زكية، وكان يلبس الأبيض من الثياب، وجُبّتُهُ يغلب عليها اللون الرمادي، وله عمامة بيضاء كالتاج. وباختصار.. كان الزهد يغلب عليه في الملبس كما في المأكل وحطام الدنيا.. وعندما بنى منزله المتواضع في حي الفراية، كانت شروطه قاسية ودقيقة، بأنْ لا يكون على أرض وقف، أو أن تكون الأرض لها علاقة بإرث أو بحقّ من حقوق العباد.

صادق: الله أكبر!.

أحمد: ولو دخلتَ منزله لاعتصرْتَ عينيك إذا دقّقتَ بأثاثه ومفروشاته، ومازلت أذكر أنّ مكتبته بدون دهان، وكراسيّه يغوص الجالس فيها إلى الأذقان.

صادق: الله أكبر! ما أروع وما أزهد هذا الشيخ!.

أحمد: يشدِّد على نفسه بالنسبة إلى حقوق الآخرين، ويبالغ بالتسامح فيما يختصّ بمصلحته.

صادق: الله أكبر.

أحمد: وكان - رحمه الله - كثير صدقة السِّر، فكم من أرامل وأيتام يأتيهم رزقهم عن طريقه، دون أن يعلم به أحد إلا الله تعالى.

صادق: يا سلام!.

أحمد: وكان يرفض القيام بتوزيع الزكوات أو صدقات المحسنين على الفقراء.

صادق: لماذا؟.

أحمد: استبعاداً لأي شبهة.. ونادراً ما يقبل الهدية.

الوالد: حدِّثنا - يا دكتور أحمد - عن الوزير مصطفى طلاس مع الشيخ.

أحمد: والله هذه حادثة تُرْوى..

وعدَّل الدكتور أحمد من جلسته، ثم ركّز نظارته فوق عينيه وقال:

- حدّثني من أثق به، عن العماد مصطفى طلاس - وزير الدفاع - قال:

«رجلان كُلِّفتُ بمهمة ذات طبيعة واحدة إليهما، من قِبَلِ رئيس الدولة.

أما أحدهما، فقد كان في نظري جبلاً، فما خرجت من عنده إلا وهو في عيني أصغر من العصفور. والثاني دخلتُ عليه، وأنا أظنّ أنّي أمامه

جبل، فما خرجت من عنده إلا وأنا في عين نفسي كالعصفور.

أما الأول، فلا ضرورة لذكر اسمه، وقد أفضى إلى ماعمل، وأما الثاني فهو الشيخ محمد الحامد رحمه الله».

يقول طلاس:

«لمّا مرض الشيخ الحامد، وبلغ خبرُ مرضه إلى الدكتور نور الدين الأتاسي، وكان يومها رئيساً للدولة.. كلّفني أن أذهب إلى حماة، وأعود الشيخ، وأنقل إليه تحيات رئيس الدولة، وتمنّياته بالشفاء، وأن أعرض عليه العلاج في الخارج، وأن يُمنح شيكاً مفتوحاً يغطي كلَّ ما يلزمه من المال، قمتُ بمهمتي، وزرت الشيخ - وهو طريح الفراش - وأبلغته ما حُمِّلتُ من تحيات رئيس الدولة، ورغبته، وقلت له: ما عليكم - يا فضيلة الشيخ - إلا أن تختاروا الدولة التي ترغبون في العلاج فيها، والدولة في خدمتكم؛ فإن ماضيكم المجيد، ومواقفكم الوطنية، وتربيتكم للأجيال، تستدعي أن يعرف هذا الوطن حقّكم، وأن يوفيكم بعض الذي عليه».

قال طلاس:

«فأبى الشيخ هذا العرض إباء شديداً، وأصر على موقفه هذا بعناد، وقال لي:

«إنني غنيٌّ والحمد لله، ولا أحتاج إلى مساعدة أحد، وإن اضطررت إلى المال، فعندي بيتي، يسدِّد كلَّ النفقات إذا بعتُـه».

وسكت الشيخ الحامد لحظة ثم قال:

«ثمّ إنكم أحوج مني إلى هذا المال، كي توزّعوه على مستحقيه من الفقراء والمحتاجين».

يقول طلاس:

«فألححتُ عليه كثيراً وهو يرفض، ثم خرجت من عنده وأنا - والله - في نظر نفسي كالعصفور أمام جبلٍ أشمَّ عظيم».

الحق أنني امتلأت إعجاباً بهذا الموقف الرائع من الشيخ أمام الحكام الذين كانوا سيستغلون موافقة الشيخ على العلاج في الخارج، ومع ذلك، أكبرتُ ـ في نفسي ـ مثل هذا العرض من رئيس الدولة آنئذٍ.

وتنحنح الحاج حاتم لأوّل مرة منذ جلسنا على ذلك البساط الأخضر، فتوجّهتْ إليه الأنظار، فقال:

ـ اسمحوا لي أن أروي لكم هذه الحادثة التي أذكرني بها حديث الدكتور أحمد عن عفّة الشيخ، وعدم قبوله الهديّة إلا نادراً.

فقال الأستاذ نعسان:

ـ هات ما عندك يا أبا الهماهم.

قال الحاج حاتم الذي يتميّز ـ فيما بدا لي ـ بحياء وأدب إسلامي رفيع:

ـ جاء واحد من خواصّ طلاب الشيخ ومحبّيه، وهو غير مسرور من موقف حصل بينه وبين الشيخ رحمه الله. . قال لي ذلك الطالب:

«أنا ـ كما تعلم ـ أدْرُسُ في جامعة دمشق، وقبل أن أغادر الشام إلى حماة، اشتريت هديّة لفضيلة الشيخ، وجئته بها إلى بيته، فقبلها الشيخ مني، وشكرني عليها، ففرحتُ، ولكنّ فرحتي لم تطل، فقد سألني الشيخ: «بكم اشتريتها؟»».

حاولتُ عدم الإجابة، لكنَّ الشيخ أصرَّ على معرفة ثمنها، وأمام إصراره، ضعفتُ وذكرت له ثمنها، فأخرج الشيخ المبلغ من جيبه، ودفعه إليّ، شاكراً وداعياً لي، وموصياً إياي ألاّ أكلّف نفسي مرة أخرى بمثل هذا.

قال الحاج حاتم: سمعت القصّة من الطالب، وتأثّرت لتأثّره، وبعد أن افترقنا، بادرت إلى شراء هديّة للشيخ، وقدّمتها له، فاعتذر عن قبولها. . رجوته فاعتذر. . ولكنّه ما لبث أن قبلها أمام إلحاحي، ولكنْ على كُرهٍ منه، ودعا لي بخير، وانصرفتُ.

وتابع الحاج حاتم يحكي تجربته مع الشيخ الحامد:

- في اليوم التالي سألتُ الشيخ عن السبب الذي جعله يدفع ثمن الهدية لذلك الطالب، ولا يدفع إليّ ثمن هديتي؟ مع أنّ ذلك الطالب كان أقرب مني إلى الشيخ وأحبّ، لأنه كان قد سبقني إلى التشرف بالتتلمذ على فضيلة الشيخ.

- فبماذا أجاب يا عمي؟

قال الحاج حاتم:

- قال لي الشيخ رحمه الله:

«ذاك طالب يدفع له أهله مصروفه ليتعلّم، لا ليقدم لشيخه الهدايا، فقبلت الهديّة منه جبراً لخاطره، أما أنت، فتكسب.. تعمل وتجني ولا يصرف عليك أحد، ولك أن تهدي من كسبك ماتشاء لمن تشاء».

فهَمْهَمَ الحاضرون إعجاباً بهذا الفهم للشيخ الحامد، فيما تابع الحاج حاتم يقول - وقد رأى استحسان الحاضرين لكلامه -:

- وجئته مرة ببعض الفاكهة، فسألني:

«ما هذا؟».

فقلت - على عادة الناس -: هذه لسالم (ولده الصغير الذي صار مجاهداً واستشهد فيما بعد. رحمه الله وإخوانه رحمة واسعة).

فقال الشيخ:

«إذاً.. لا يجوز لأحد من أهل البيت أن يذوقها، لأنها مُلْك صبيٍّ صغير».

صادق: وماذا فعلت يا عمي؟.

حاتم: أقسمتُ له إني ما قلت ذلك إلا ليقبلها مني، وهي لأهل البيت جميعاً.

صادق: الله أكبر! ما أعظم هذا الرجل.

نعسان: هل انتهيتَ مما عندك يا دكتور أحمد؟.

أحمد: إن شئتم حدّثتكم عن الشيخ أياماً، ولكني سوف أوجز، فالطعام ينتظركم وأنتم تنتظرونه.

صادق: أمّا أنا، فجوعان جداً جداً لهذه الأحاديث الشهيّة عن ذلك الشيخ الفاضل الذي يذكّرني بأجدادنا الكرام، من الصّحابة والتابعين، والعلماء العاملين.

قرأت السرور في وجوه أعمامي العلماء الفضلاء. ثم رأيتهم يتوجّهون تُجاه الدكتور أحمد الذي انبرى يقول:

ـ كان الشيخ ـ رحمه الله ـ غزير الدمعة، وكثيراً ما يعتريه البكاء شوقاً إلى الحبيب محمد ﷺ، أو خوفاً من الله، وفزعاً من النار وذكر جهنم، والعياذ بالله، أو رقّةً لقصة أرملة أو يتيم، أو لحال المسلمين، وما آلت إليه من ذلّ وتشرّد وضياع، أو لذكر الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، فقد كان الشيخ يكثر من ذكره.

ـ الله الله!.

وقد يبكي الشيخ عند تجليات الحقّ على قلبه، فيشاركه إخوانه وجلساؤه في البكاء.

صادق: كيف؟

أحمد: قد يطرقه حالٌ يتدفّق على قلبه وروحه، فيصرخ باسم الذات الإلـٰهية مرة، ويضطرب أخرى. وعندما كان يُسأل عن ذلك كان يجيب:

«إذا طرقَ الحالُ القلبَ بكى، وإذا طرقَ الرُّوحَ صاح».

وكان يستشهد بقول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

كان التأثر قد بلغ مبلغه من نفوس السادة العلماء، وربما كنت أشدَّ منهم تـأثُّراً بما أسمع، وكانت عدّة تسـاؤلات تتلجلج في الصَّدر، وكان يمنعني الحياء من الإفضاء بكلِّ مافي نفسي، غير أنّ والدي لمحَ أو أحسَّ ما يجول في نفسي، فقال:

ـ إذا كان في نفسك شيء يا ولدي فأخرجه، واستفد من أعمامك.

شعرت بسخونة في خدّي، ولكنّي تشجّعت وقلت:

ـ الحقيقة، كما يقول الناس، في نفسي تراكمات، أريد أن أفرّغ بعضها

ـ قـل يا ولدي، فهؤلاء أعمامك، وهم جميعاً من تـلاميذ الشـيخ الحامد، ما عدا الأستاذ محمداً. فهو من زملائه وأصدقائه، وهو مثله، عالم وأديب وكاتب وشاعر.

فرحت كثيراً بما سمعت، ثم قلت:

ـ أريد ـ أولاً ـ أن أعرف شيئاً عن علم الشيخ.

ثانياً: عن أدبه وشعره.

ثالثاً: عن ورعه وتقواه.

رابعاً: عن علاقته بالحكام.

خامساً: عن إرشاده وتربيته لتلاميذه.

سادساً: هل كان الشيخ متزمّتاً؟

فقاطعني الدكتور أحمد بقوله:

ـ سأبدأ من (سادساً)..

الشيخ رحمه الله كان أديباً فكِهاً، لا تكاد دعابته الحلوة الظريفة تفارقه حتى في أضيق الأوقات وأحرج المواقف، ولم يكن متزمّتاً قط، وربما جمع في مجلسه بين الدُّعابة والبكاء.

فقال لي الأستاذ محمد:

ـ سأروي لكم حادثة تناسب المقام . .

كنّا ـ ذات ليلة ـ في ضيافة أحد أصدقاء الشيخ ، ومعنا الشاعر الحموي الدكتور وجيه البارودي . وعلى عادة الدكتور في إرسال النكات ، أطلق بعضها ممّا لم يرق للشيخ ، فظهر الإنكار في وجهه ، ثم انسحب من المجلس ، مضحّياً بكل ما يحدق بـه من روائع الأزاهير ، ونفحات العبيـر . . وهي من أحب الأشياء إليه .

صادق : لماذا تصرّف الشيخ هذا التصرّف ، مع حبِّه للدُّعابة يا سيدي ؟

محمد : لأن الشيخ رحمه الله كان شديد الحرص على كرامة العلم ، فلا يتساهل بحقّه حتّى في مثل هذه المواقف ، مع ظرف الشيخ ، وميله إلى الدعابة ، ولكن ، ضمن حدود الأصول التي لا تجرح الوقار .

سعيد : والشيخ رحمه الله كان قمّة في العلم ، ووارث النبوّة منهاجاً وطريقاً وتحققاً .

صادق : إذن . . انتقلنا إلى علم الشيخ رحمه الله .

أحمد : أنا ألخص لك ثقافة الشيخ التي كوّنت شخصيته العلميّة . .

الشيخ رحمه الله خرّيج الأزهر الشريف . . درس فيه ست سنين كما ذكرنا قبل قليل ، وهو قبل أن يذهب إلى الأزهر ، كان عالماً ، وعندما اختبره علماء الأزهر ، قال أحدهم عنه :

«هذا بحر علم لا تنزحه الدِّلاء» .

وقال عالم آخر :

«هذا رجلٌ امتلأ علماً ، جاء ليحصل على شهادة» .

صادق : يا سلام ! .

أحمد : نعمْ يا بني . . فالشيخ ما كان يقتصر على ما يتلقّاه من علم في المدرسة الشرعية أو في الأزهر ، بل كان يميل إلى المطالعة الحرّة ، ويكفي

أن تعلم أنه قرأ مكتبة أخيه الشاعر بدر الدين، وهي مكتبة حافلة زاخرة بمئات الكتب والمجلدات، قبل أن يبلغ العشرين من العمر.

صادق: الله أكبر!.

أحمد: على أيّ حال.. أستطيع أن أقول: إنّ ثقافة الشيخ تشكّلت من مجموع الكتب التي قرأها، في الأدب والشعر وعلوم اللغة العربية المختلفة، من نحو وصرف وبلاغة وعروض، وسواها، كما قرأ كتب الحديث الشريف، فلم يدع كتاباً وصلت إليه يده، إلا قرأه في الحديث وعلومه وشروحه، وقل مثل هذا في كتب التفسير.

صادق: عفواً سيّدي. هل كان الشيخ يحفظ كتاب الله تعالى؟.

أحمد: حفظ القرآن الكريم وهو في الثانية والثلاثين من العمر. وقرأ الشيخ كتب الفقه للأئمة الأربعة، وإن كان قد تخصص في الفقه الحنفي.

صادق: لأنّ مذهب الشيخ حنفي؟.

أحمد: نعمْ.. كان حنفيَّ المذهب.. ثم إنّ الشيخ قرأ الكثير من كتب التاريخ وتراجم الرجال، وقرأ كتب التصوّف والتربية الرُّوحيّة، وخاصة كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي رحمه الله.

فارس: لكنّ الشيخ ما كان ينصح بقراءة بعض الكتب الصوفية، إلا لمن كان على جانب من العلم بالكتاب والسنّة وعلم التوحيد.

صادق: لماذا؟.

فارس: لتقيه من مطبّات الشَّطحات، لأنّ الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يشدّد النكير على كل عبارة تُشْتَمُّ منها رائحة الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود.

صادق: لم أفهم شيئاً مما قلته يا عمي.

الوالد: خيرٌ لك ألاّ تفهم مثل هذا الكلام.. الآن على الأقل.

صادق: لماذا يا أبي؟.

سعيد: هذه مصطلحات فلسفية من الصعب أن تدرك معانيها الآن، ولكنك ستفهمها عندما تكبر إن شاء الله.

محمد: لكنْ.. لا باس من الدّردشة حول تصوُّف الشيخ، وسوف يفهم صادق ما نقول، لأنّ التصوّف جزء لا يتجزأ من حياة الشيخ.

صادق: إن شاء الله. وسأصغي جيّداً لعلّي أفهم ما تقول يا عمي العزيز.

محمد: تلقّى الشيخ بوادر الصُّوفيّة الأولى منذ نشأته في ذلك البيت الذي كان الزهد والقناعة وسيلته إلى مجابهة الضَّنْك الذي ينيخ عليه بكلاكله. وطبيعيٌ أنّ التصوُّف القائم على الرِّضى بالمقسوم، ومعالجة الحرمان بالأذكار الواصلة بين الليل والنهار، أنجع الأسباب في التخفيف من أعباء الواقع، فكيف إذا كان ربُّ هذا البيت من شيوخ الصّوفيّة الذين يتأسّى بهم السالكون؟.

وسكت الأستاذ محمد لحظات تنفّس خلالها كمن يتنفّس الصُّعَداء، ثمّ تابع يقول:

ـ فالصوفيّة الذاكرة الزاهدة الصابرة، إذاً هي أول المؤثرات التي واجهها أهل ذلك البيت، فلا غرابة أن تطبع نفس هذا الفتى الملتهب المشاعر، الفائض الذّكاء، بصبغتها العميقة، فلا تكاد تزايله يوماً كاملاً من حياته.

وسرح الأستاذ محمد بخياله، كأنه يستدعي ذكريات مهمةً، ثم قال:

ـ وهنا نتذكر شيئاً آخر يتصل بهذا الجانب من حياة الناس في حماة، ولا بدّ أن نتساءل عن أثره في نفس ذلك الفتى أيضاً.. أعني تلك الدّعوة السلفية التي بدأت تتحرك لمواجهة الصوفية التي كادت تحتوي مجموع العامّة، لا في حماة وحدها، بل في البلاد المجاورة أيضاً، ولا سيّما حمص التي هي مقر المرشد الأكبر للصوفية النقشبندية آنئذٍ: الشيخ أبي النصر خلف الجندي.

الجميع : رحمه الله .

محمد : وكما تأثرت النشأة الأولى للشيخ الحامد بالنزعة الصوفية ، حدث أن تأثر الشيخ بنقيضتها السّلفيّة التي كان داعيتها خاله العّلامة الصالح الشيخ سعيد الجابي رحمه الله .

الجميع : رحمه الله .

محمد : ثمّ تحوَّل الشيخ الحامد إلى الصُّوفية من جديد ، عندما كان يدرس في حلب . والظاهر أنّه كان تحوُّلاً جذرياً عميقاً قطعه عن إخوانه السلفيين ، الذين آلمتهم عودتُه إلى الصوفيّة ، فانطلقوا يضايقونه . وقد شدّد من التزامه طريقَ الصوفيّة ، اتصاله بشيخ النقشبندية الحمصي الشيخ أبي النصر الذي استهواه بشخصيته القوية ، فاتخذه مرشداً ، يستمدّ رأيه في كلّ مشكلة تواجهه ، والشيخ أبو النصر ينصحه ويوجّهه ويرشده إلى ما ينبغي عمله .

صادق : إذاً . . كان الشيخ الحامد صوفياً .

محمد : لكنه لم يفارق ـ قطُّ ـ منهج العلم ، وموجبات الكتاب والسنّة .

صادق : شكراً لكم يا سيِّدي . . يكفيني هذا . .

حاتم : ما دمنا في صدد الحديث عن علم الشيخ ، أريد أن أروي لكم هذه الحادثة .

فاتجهت الأنظار نحو الحاج حاتم الذي بدا لي أحد التلامذة المحبّين المخلصين للشيخ الحامد رحمه الله . قال الحاج حاتم :

ـ جئتُ إلى الشيخ في يوم جمعة لآخذه بسيارتي إلى مسجد المرابط ـ أيام مرضه ـ ليصلّي فيه .

فسألت عمّي الحاج عن سبب عدم خطابته ، ونسيت أو سهوتُ عن قوله :

«أيام مرضه» . ثم تابع الحاج حاتم حديثه :

ـ عندما ركبنا السيارة، شاهدت ولده محموداً ـ وأشار إلى الشيخ محمود الذي يجلس أمامه ـ كان الشيخ محمود قاصداً جامع النُّوري ليخطب الجمعة فيه، فاستأذنت الشيخ في إيصال الشيخ محمود إلى جامع النُّوري، فأذن لي. وبعد أن سرت قليلاً قلت للشيخ:

«ما رأيك يا سيدي في أن نحضر خطبة الشيخ محمود، ونصلي عنده؟»

فلم يوافق الشيخ على هذا الرأي.

ونزل الشيخ محمود عند باب المسجد، وتابعنا المسير، فقال الشيخ رحمه الله: «ارجعْ إلى جامع النُّوري لنصلي مع الشيخ محمود. لكن.. ادخلْ أنت أولاً، وانظر أين يصلي الشيخ محمود الآن صلاة السنَّة».

فدخلت ثم عدت لأخبر الشيخ بأن ولده الشيخ محموداً يصلي أمام المنبر.

فدخل الشيخ من باب جانبي، من جهة الشرق، وجلس بحيث لا يراه الخطيب، أي الشيخ محمود.

بدأ الشيخ محمود يخطب، فكانت خطبته حول قول الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وأورد الشيخ محمود ما قاله المفسّرون، ثم أتبعه بأقوال علماء الطبيعة والفلك المُحْدَثين، وما صدر عنهم من نظريات وأقوال حول خلق السماوات والأرض، ومادّة كلٍّ منهما. ثم أنهى خطبته ونزل للصلاة.

عندها أمرني فضيلة الشيخ أن أصلّي الفريضة خلف الإمام، وأنادي بالناس ألا يخرجوا من المسجد، حتى يسمعوا تعليقاً على الخطبة من الشيخ محمد الحامد.

ـ ونفَّذتَ الأمر؟.

ـ وهل أستطيع تجاهُلَ أمر الشيخ، حتى لو كان كهذا الأمر الذي وقع

عليّ وقوع الصاعقة . . لكن، لا مناص من التنفيذ والطاعة .

ناديت بعد انتهاء الصلاة بما أمرني به الشيخ الذي جاء ووقف أمام المنبر ليتكلَّم، ولكنّ الناس ألحُّوا عليه أن يصعد إلى المنبر، فصعد الشيخ، وعلَّق تعليقاً شديد اللهجة، أنكر فيه على ولده محمود أن يأتي بنظريات علمية يذكرها أصحابها اليوم، لينقضوها أو يغيّروا ويبدلوا فيها غداً .

صادق: أنا مع فضيلة الشيخ الحامد فيما ذهب إليه، وأنا أضحك يومياً من أعماقي وأنا أرى المذيع يتحدث عن أعمار بعض العظام بمئات الملايين من السنين. . كلام فارغ لا قيمة له. ولكن. . ماذا كان موقف الشيخ محمود؟ .

لم أنتبه إلى لهجتي التي جعلت أعمامي العلماء يحبسون ضحكاتهم، لولا أني التفتُّ إلى عمي الحاج حاتم لأسمع جوابه، فاعتذرتُ عما بَدَرَ منّي من كلام سخيف، وإلا . . فمن أكون أنا حتى أبدي رأيي أمام هؤلاء العلماء الأفاضل؟ .

ومع ذلك . . أجابني الحاج حاتم بقوله :

ـ في اليوم التالي اعتذرت للشيخ محمود عمّا حصل، فقال لي :

«لا داعي للاعتذار، فقد شاء الله أن يكشف تجرُّد الوالد لله تعالى، وأنه لا يمنعه من قول الحق الذي يعتقده أيُّ مانع» .

وقال الحاج حاتم :

ـ واسمعوا هذه النكتة التي تأتي في باب عمق الشيخ . . عمق فهمه لما عَلِمَ . . نُمي إلى عِلْم الشيخ ـ رحمه الله ـ أن بعض المشايخ في حماة يترددون على المحافظ راغبين في تسلُّم وظيفة الإفتاء . فغضب ـ رحمه الله ـ صيانةً للعلم، وإكراماً للعلماء أن يطرقوا أبواب الحكام، ولم يذكر الشيخ واحداً منهم باسمه أو صفته .

فقلت: لا حول ولا قوّة إلا بالله .

فقطع الشيخ حديثه وقال:

«الحَوْقلة في أثناء الغيبة غيبة».

فارس: أراد الشيخ أن يعلّمك ويوجهك إلى حُكْم شرعي يغيب عنا كثيراً يا حاج حاتم.

سعيد: بل كثير منا لا يدركه، وهذا دليل على الفهم العميق عند شيخنا رحمه الله.

أحمد: والحديث عن ثقافة الشيخ وعلمه، لا بدَّ أن تقودنا إلى دروسه ومحاضراته وخطبه.

فارس: كان الشيخ يحضّرها تحضيراً جيّداً، بالرجوع إلى عدد من المراجع العلميّة.

أحمد: كان للشيخ ـ رحمه الله ـ ستة دروس مسائية في جامع السلطان، يبدأ الدرس بعد صلاة المغرب، وينتهي بعد صلاة العشاء.

صادق: ماذا كان يدرِّس الشيخ يا عمي؟.

أحمد: التفسير، والفقه، والحديث، والسيرة. كما كانت له دروسه الصباحية في جامع الجديد من قبيل طلوع الشمس حتى يحين الدوام الرسمي في المدارس، هذا في الشتاء، أما في العطلة الصيفية، فقد يمتدّ أكثر من ساعتين، حسب طاقة الحاضرين.

صادق: أيضاً ستة أيام في الأسبوع؟.

أحمد: نعمْ ياصادق، فقد نذر الشيخ نفسه للعلم، فكلُّ أوقاته مملوءة بالبحث والدرس والتعليم، وكان يحثُّنا على العلم ويقول:

«نحن في حاجة إلى العلم أكثر من حاجتنا إلى الذكر، ولَعَالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابد».

وقال والدي:

ـ ألا تحدّثوننا عن زهد الشيخ يا تلاميذ الشيخ؟.

فانبرى الحاج حاتم يقول:

ـ أنا سأبدأ الحديث، ومن مشاهداتي..

توفّي مفتي حماة الشيخ سعيد النعساني رحمه الله، وشغر منصب الإفتاء فترة طويلة، كانت المشاورات ـ خلالها ـ على قدم وساق من أجل إيجاد البديل الصالح لهذا المنصب. وكان الذين يتقدمون لشغل هذا المنصب لا يوازون شيخنا الحامد، لا في علمه ولا في زهده وورعه وتقواه. ومع أن شيخنا الحامد كان هو المفتي الحقيقي للبلد في هذه الفترة، يستقبل المستفتين والسائلين من داخل سورية ومن خارجها، ويردُّ على استفتاءاتهم مشافهة أو كتابة وبوساطة البريد ـ فإن الشيخ كان يأبى أن يتقدم لشغل هذا المنصب.

بعث إليه وزيرُ الأوقاف عن طريق المحافظ ليقبل منصب الإفتاء بشكل رسمي، فأبى، وكان للمفتي بعض المزايا المادية، من سكنٍ وسيارة وراتب لا يستهان به، ولكنَّ الشيخ كان فوق الإغراء والترغيب في هذا الحطام.. وتوسَّط بعض العلماء لدى الشيخ، يرجونه أن يقبل، فأبى وقال لهم:

«أنا أفتي الناس جميعاً في المسجد، وفي البيت، وفي الشارع، وفي المدرسة، فما حاجتي إلى منصب الإفتاء؟».

وذات ليلة، دعا محافظُ حماة جمعيةَ العلماء إلى سهرة في بيته، لبحث بعض الأمور المهمة، وكان الشيخ من بين المدعوّين.

حملتُ الشيخ بسيارتي إلى منزل المحافظ. وبدأ الحديث عامّاً، ثمّ دخل المحافظ في صُلب الموضوع الذي كانت الدعوة والسهرة من أجله، وقال:

«إن سيادة الوزير اتّصل بي مؤكداً أن نأخذ موافقة الشيخ محمد الحامد على قبول منصب الإفتاء».

ثمّ توجّه إلى الشيخ قائلاً:

«وأنا أرجوك ـ يا فضيلة الشيخ ـ أن تقبل، فأنت أولى الناس بها، وأخشى أن يستلم هذا المنصب من ليس له أهل فتأثم».

وتكلّم عددٌ من العلماء، وخوّفوا الشيخ بالله تعالى، وحمّلوه المسؤولية، وختم الشيخ توفيق الصباغ ـ رحمه الله ـ الحديث بقوله:

«يا ابني يا محمد، الله يرضى عليك، أطع إخوانك».

فقال الشيخ رحمه الله:

«دعوني حتى أستأمر ربّي».

والتفت إلى المحافظ وقال:

«إذا وافقت على ذلك، فإني أشترط أن لا أستقبل أحداً، ولا أودّع أحداً، ولا أحضر الاحتفالات، ولا ولا ولا . . ».

صادق: جميل . . فماذا كان جواب المحافظ؟.

حاتم: قال له المحافظ: «أتعهد لك بأن لا ألزمك بشيء من ذلك».

صادق: عظيم!.

حاتم: ولكّن الشيخ قال للمحافظ: «افرضْ أنك نُقلتَ من مكانك، وجاء بعدك من لا يعترف على تعهُّدك لي».

وسكت الشيخ لحظة ثم قال:

«على كلٍّ . . دعوني حتى أستخير الله تعالى . . أريد أن أستأمر ربّي».

صادق: ثم ماذا؟

حاتم: ثم انصرفنا من بيت المحافظ، وفي اليوم التالي أبلغه الشيخُ رفْض المنصب.

أردتُ أن أعلّق على هذه الحادثة التي فيها من الزهد مافيها، وكان رأيي على عكس رأي الشيخ رحمه الله تعالى، ولكني خشيت أن يضحك

عليّ السادة العلماء، فمن أنا حتى أبدي رأيي في مثل هذا الأمر الخطير؟ ثم شرح الله صدري لما شرح له صدر الشيخ رحمه الله.

وقال الأستاذ نعسان:

ـ الحقيقة.. موقف الشيخ هذا نابعٌ من موقفه من الحكّام.

فتحفّز الدكتور أحمد للكلام بعدّة حركات، ثم قال:

ـ موقف الشيخ من الحكام واضح.. لا يزورهم إلا اضطراراً، كأن تنزل بالمدينة نازلة، أو تصيب الناس مصيبة.. عندها كان يزور المحافظ أو سواه، ناصحاً، أو آمراً بمعروف، أو ناهياً عن منكر، من غير مداهنة أو نفاق والعياذ بالله، وكان الشيخ يقول:

«بئس العلماء في أبواب الأمراء.

ونِعْمَ الأمراء في أبواب العلماء».

صادق: هل تضرب لنا مثالاً ـ يا عمي الفاضل ـ عن تدخُّل الشيخ لدى الحكّام؟

أحمد: خذ مثلاً أحداث عام ١٩٦٤م أعني أحداث جامع السلطان في حماة، عندما اعتصم جمعٌ من الشباب في جامع السلطان، فطوَّقت السُّلطة الجامع، ونشرت عناصرها المسلّحة في شوارع المدينة، وصبَّت حُممها على المسجد لتهدمه ولتقتل مَنْ فيه، وهدّمت مئذنته.

صادق: عفواً عمّي لم أنتبه للتاريخ.. فمتى حصل هذا؟

احمد: في الخامس عشر من نيسان ١٩٦٤ صباح يوم الأربعاء..

كنت صبيحة ذلك اليوم أزور الشيخ في بيته، فأصعدني إلى سطح المنزل المطلّ على المدينة، وقال لي:

«ماذا يجري في حارتكم»؟

وأشار إلى الدبابات وقذائف المدافع والراجمات وهي تنهال على

جامع السلطان، ثم قال والألم يعتصر قلبه وعينيه:

«يا ولدي. المسجد مسجدي، والشباب تلاميذي، والأفكار أفكاري، ولكنّي لم أقل لهم: افعلوا هذا» مشيراً إلى طلبه أن يخرج الشبان المعتصمون من المسجد، فلم يخرجوا تلك الليلة.

فارس: والحقيقة؟

أحمد: الحقيقة.. علمتُ أنّ المعتصمين عزموا على فضِّ الاعتصام في صباح ذلك اليوم بعد صلاة الفجر، فعاجلتهم السُّلطةُ بالضرب وهم نيام.

صادق: لا حول ولا قوة إلا بالله.

أحمد: واجه الشيخ هذه الأحداث الأليمة برجولة وشجاعة، وحاور السلطةَ بصراحة وحكمة، واستجاب المسؤولون لمطلب الشيخ بإلغاء أحكام الإعدام التي صدرت بحقِّ عدد من تلاميذه وبإطلاق سراح المعتقلين، وإعادة بناء جامع السلطان من جديد.

كان الصمت مهيمناً على الجميع، وذرفت بعض العيون، فيما كان الدكتور أحمد يتابع حديثه بتأثر شديد:

ـ كانت تلك الأيام شديدة على الشيخ رحمه الله، مرّتْ ببطء وكأنها سنوات، وكنتُ لا أراه فيها إلا حزيناً، باكياً، متألماً، يتنقل من مكان إلى مكان، إلى أنْ كلّل الله جهوده بالنجاح، إلا أنّ هذا كان على حساب صحّته وحياته، فقد قال لي مرّة:

«أخشى أن أقع في مرضٍ عُضَالٍ لا أشفى منه».

الجميع: وقد كان.

أحمد: أصيب في كبده، وصار طريح الفراش، وأُجريتْ له عملية جراحية يائسة في مستشفى المقاصد الإسلامية في بيروت، ولكن دون جدوى، ثم وافتْه منيّته في منزله بحماة في الخامس من أيار ١٩٦٩م عليه رحمة الله ورضوانه.

صادق: والسلطة لم تتعرض له بأذى؟

أحمد: لقد أحاطت العناية الإلـهية بالشيخ، وحفظه الله من أن تمتدّ أيدي الظلمة إليه بالإيذاء أو الضرر، لما وضع الله من المهابة فيه.

صادق: رحمه الله رحمة واسعة.

أحمد: لقد حمل الشيخ من هموم المسلمين ما تنوء منه الجبال، وركبته الأحزان والآلام على ما آلت إليه أحوالهم، وخاصّة بعد أن امتدّ الأخطبوط الصّهيوني إلى الأراضي المقدّسة، وعجز العرب والمسلمون عن مقاومته، وكنّا نسمعه يقول في أنين:

«هموم المسلمين فتّتَتْ كبدي».

وسكت الدكتور أحمد لحظات كان الحزن فيها مخيِّماً على الجوّ، وكأن الشيخ ماثلٌ أمامنا، يعاني ما يعاني من آلام وأحزان، ثم تابع يقول:

ـ كان الشيخ يرى أنه في رباط على ثغر من ثغور الإسلام في حماة، ولهذا ما كان يجد لنفسه رخصة في مغادرتها إلا مضطراً، ولذلك لم يحجَّ إلا حجّ الفريضة فقط. وعندما اشتاق لحجّة أخرى، وقيل له في ذلك، قال:

«لمن نترك البلد، وأكثر علمائها وشيوخها يحجون كلَّ عام؟

أخشى من الوقوع في الإثم، إذا لم يجد الناس من يستفتونه في شؤون دينهم».

صادق: الله أكبر!. ما أعظم فهْمَ هذا العالم للإسلام!.

وانتبهتُ ـ أخيراً ـ إلى أني أقول كلاماً فيه تعريضٌ بوالدي الذي حجَّ أكثر من مرّة، وربّما حجَّ غيره من العلماء الموجودين أكثر من مرّة أيضاً، خاصّةً أني فاتحته أكثر من مرّة، ورجوته أن ينفق على الفقراء من أهل مدينتنا ومن أسر زملائي الطلبة، ما سوف ينفقه في حجه هو وأمّي، فقد حجّوا ثماني حجّات.. واسترقتُ النظر إلى أبي، فوجدته ما يزال في أحزان حديث الدكتور أحمد، وحمدتُ الله على ذلك، لأنني كنت سأموت همّاً

وغمّاً لو ظنَّ أنني أعرّض به .

نظرت إلى عمّي الحاج حاتم، لعله يحدّثنا من ذكرياته اللطيفة مع الشيخ، وكأنه أدرك ما بنفسي، فتنحنح واعتدل في جلسته ثم قال :

ـ سأحدثكم عن ورع الشيخ رحمه الله .

فاشرأبّت الأعناق نحوه، وانطلق لسانه الذي اعتاد على قول الخير يقول :

ـ قَفَلْنا راجعين من دمشق : الشيخ الحامد، وولده الشيخ محمود، والأهل، وأنا . توقفنا في بلدة النبك، ودخل الشيخ المسجد ليجدّد وضوءه، ودخلت مع الشيخ محمود أحد المطاعم، واشترى لنا الشيخ محمود عدّة سندويشات، وفيما كنا نأكل، جاء الشيخ الحامد، وسأل ولدَه الشيخ محموداً :

«من أين أحضرتم هذا الطعام»؟

فأشار الشيخ محمود إلى المطعم الذي اشتراه منه . فغضب الشيخ غضباً شديداً، وانهال بكلمات التعنيف على الشيخ محمود الذي بقي صامتاً مطرقاً رأسه، لا يرفع نظره في وجه أبيه الشيخ .

ركبنا السيارة، وتابعنا المسير، دون أن أفهم سبب غضب الشيخ الذي بقي متعكّر المزاج حتى وصلنا إلى حماة .

وفي المساء رجعتُ إلى الشيخ لإيصاله إلى مسجده، ولحضور درسه اليومي فيه . . سألت الشيخ عن سبب غضبه صباح اليوم في النبك، فغضب مرّة أخرى وقال :

«كيف تبيحون لأنفسكم شراء طعام من إنسان يبيع الخمور والمحرَّمات»؟

قلت : معاذ الله أن يكون لديه خمر .

قال : فماذا كان في تلك القناني التي يعرضها في واجهة محلّه؟

قلت: هذه عصير ومرطبات وأشربة غازية.

قال: أمتأكّد أنت؟.

قلت: طبعاً متأكد.

وفي اليوم التالي كان الشيخ يعتذر لولده الشيخ محمود ويقول له:

«سامحني يا ولدي محمود، فقد علمت من حاتم أن القناني ليس فيهاشيء محرَّم».

يبدو أنّ هذه الحادثـة لم تثر إعجاب السـادة العلماء، ولذلك قال الحاج حاتم:

ـ اسمعوا هذه الحادثة التي رأيتها بأمّ عيني، وكنتُ طرفاً فيها:

كنـا في دمشـق مع الشيخ الحامد ـ رحمه الله ـ من أجل مراجعـة طبيبه هناك..

خرجنا في نزهة إلى الغوطة الغربية، وكنّا كلما وجدنا مكاناً مناسباً، كان الشيخ ينزل من السيارة، ثم يعود إليها مسرعاً ويقول: هناك أسرة، أو النساء، أو.. أو.. ويخشى أن تقع أنظارنا عليهنّ.

وما زلنا نتقدم حتى وصلنا إلى نبع بردى. وعلى غير العادة، وجدنا شاطئاً جميلاً جدّاً، فيه أشجار وارفة الظلال، وهو خالٍ من المصطافين، ولم نكن نعلم أنّ خلوَّ هذا المكان من المصطافين، سببُه أنه ملك خاص، وأنّ مالكه سيأتي بعد قليل.

تركنا الشيخ ونزل إلى بردى ليتوضأ، وفيما نحن ننتظر عودة الشيخ للصلاة، رأينا رجلاً يقترب منا، والغضب في وجهه، أسرعنا إليه، وتلقيناه قبل أن يصل إلى الشيخ، فقال في غضب:

«ما الذي أجلسكم هنا؟ هذه أرضي.. اخرجوا فوراً».

صرنا نرجوه أن يخفض صوته، وأن يطلب ما شاء أجرة إقامتنا في

أرضه وهو يرفض. وفيما كنا نحاوره ونرجوه ونمشي معه مبتعدين عن الشيخ، إذا الشيخ يلحق بنا، وفي يده عودٌ صغير من شجرة وهو يقول: «اذهبوا إلى صاحب الأرض، وادفعوا له ثمن هذا العود الذي كسرته وأنا أعلّق عليه جبّتي».

كان صاحب الأرض يسمع، والشيخ لا يعرفه، ولا يعرف أنه صاحب الأرض. . . سمع الرجل كلام الشيخ، فانبسطت أساريره، وتحوّل إلى الهدوء واللطف وقال:

«تفضّلوا استريحوا على الرَّحْب والسَّعَة، وهذا البيت ـ وأشار إلى بيت كالقصر في أعلى الهضبة ـ بيتي، وهو على حسابكم، وأي شيء تحتاجونه فأنا هناك تحت أمركم».

ثمّ التفت إلى الشيخ وقال له:

«لا أريدُ ثمن شيء. . أريد دعوة صالحة».

وودّعنا وانصرف، جزاه الله خير الجزاء.

الحقّ. . . أنّ القصّة كانت مؤثرة، وهي تدلُّ على ورع عجيب عند الشيخ الحامد، كما تدلُّ على طيبة أبناء الشعب الذين يُؤخذون بمثل هذه الحالات النادرة في هذه الحياة المليئة بالشّرور.

نعسان: هات يا حاج حاتم هات من هذه الدّرر.

حاتم: في الذاكرة أشياء كثيرة، وسأوجز لكم ذكريين جميلتين:

الأولى: كان الشيخ يخطب الجمعة في جامع السلطان، وكنت في وسط المسجد أؤدي صلاة السُّنّة القَبْليّة، وبعد الصلاة جئته مسلّماً عليه، فقال لي: «عند الرَّفع من الركوع، يجب عدم تحريك اليدين إلى الأمام والخلف، كما رأيتك تفعل وأنت تصلّي السّنّة».

صادق: ما شاء الله. . . قوة ملاحظة رائعة.

حاتم: لم تشغله الخطبة عن ملاحظة هفوات المصلّين.

نعسان: والذكرى الثانية؟.

حاتم: عُدْتُه ـ رحمه الله ـ وهو مريض في شهر شباط، فقلت له مؤانساً:

«غداً تشفى بإذن الله تعالى، ونذهب في نزهة، وقد جاء شهر شباط هذا العام هادئاً، لا كما يقال: شباط لبّاط».

فقاطعني ـ رحمه الله ـ قائلاً:

«لا أثر للشهور في الأحوال، بل الله سبحانه وتعالى هو المؤثّر، وهو الخالق، فلا تنسب شيئاً للشهر».

ثم استغفر ونطق بالشهادتين، ففعلتُ مثله، رحمه الله رحمة واسعة.

صادق: من خلال ما سمعتُ اليوم منكم يا أعمامي الكرام، استقرَّ في ذهني أنّ الشيخ رحمه الله، كان يحبّ النزهة والمتنزّهات.

فارس: تصوُّرُك صحيح يا صادق، فقد كان شيخنا ـ رحمه الله ـ يحبّ الطبيعة، ويعشق جمالها الفتّان، وكان للطبيعة الجميلة في حماة، بما فيها من بساتين وأشجار وظلال، ونهر العاصي، والنواعير... كان لكلّ هذا أثرٌ واضح في نفسه، خاصة إذا علمنا أنّ الشيخ شاعر وشاعر مُجيد.

فتحرّك الأستاذ محمد في مجلسه، وقال:

ـ الآن.. جاء دوري ودور الشعر.. فاسمعني جيّداً يا صادق..

كان للشعر نصيبٌ وافر في مجالس الشيخ، لا يقلّ عن نصيب الفقه الذي اشتهر به، وكثيراً ما أسمعني من نظمه المُعْجِبَ والمُطْرِب، وبخاصّة من رقائقه الروحيّة، ثم من دعاباته اللطيفة التي راسل بها بعض أحبابه من شيوخه وطلابه.. وهو في كلا الفنّين ذو طبيعة شاعرية، تحسُّ وأنت تتلمّسها من خلال نفحاته، أنها كانت جديرة بأن تجعل منه واحداً من كبار شعراء الشام، لاينزل عن مرتبة أخيه الأستاذ بدر الدين الحامد، الذي عُرف بلقب (شاعر العاصي)، لو أطلق لها مجال القول، ولولا أنه آثر أن يحبسها

وراء دراساته الفقهية التي غلبتْ عليه، فجعلتْه واحداً من كبار علماء الحنفية، لا في الشام، بل في العالم العربيّ والإسلاميّ بأجمعه.

صادق: هل تُسْمعنا شيئاً من شعره يا سيِّدي؟.

محمد: لا مانع.. بل هذا يسعدني، ويُدْخل السُّرور إلى نفسي.

اسمع بل اسمعوا جميعكم هذه القصيدة التي وصف فيها شوقه إلى مدينته (حماة) بعد ما غادرها لطلب العلم في حلب عام ١٩٢٨ وهي من بواكير شعره، وكان عمره آنذاك.

صادق: ثمانية عشر عاماً.

محمد: أحسنت. قال الشاب محمد الحامد قبل أن يصير شيخاً:

آهـاً علـى وادي حمـاة إذا نسيـمُ الصُّبْـح هبّـا
آهـاً على تلك الرّبـوع وأهلها بُعْداً وقُرْبـا
النهر يخترق الرِّياض وقد جرى حُلْواً وعذبا
دولابُـه يبكـي ويسقـي الدَّمعَ فـاكهـةً وأبّـا
يـا مَـنْ بقلبـي وُدُّهـم وبحقِّهـم لـم أجـن ذنبـا
لا تقطعـونـي إننـي قـد كنـتُ واللهِ المحبّـا

ونظر إليّ الأستاذ محمد وقال:

ـ ما رأيك في هذا الشعر يا أستاذ صادق؟

فاحمّر خدّاي من شدّة الحياء لهذا النداء المفاجئ (يا أستاذ صادق).

وأراد الأستاذ محمد أن يُسرِّي عن خجلي فقال:

ـ سوف أسمعك قصيدة أخرى نظمها عام ١٩٣٣م بعد انتهاء الامتحان في المدرسة الخسروية (الكلية الشرعية) بحلب، وبعد عودته إلى حماة، وفيها يحنّ إلى حلب وإخوانه الطلبة فيها:

يـا ريـاح الشّمـال هُبّـي عليّـا   واملئينـي مـن نفـح طيبـك ريّـا

آهِ لـو دُمْـتِ لـي ودام زمـانٌ — كنـتُ فيـه عـن اللُّغـوب قصيّـا
يـا أخـلّائـي؛ هـل معـادٌ إليكـم؟ — يـرجـع العهـدَ عهـدَنـا الـذّهبيّـا
مُـذْ بَعُـدْتـمْ أعقبتمـونـيَ حـزنـاً — كنـتُ منه وقـتَ التّـدانـي خليّـا
إذ سـروري بكـم عظيـمٌ وعيشـي — يـا أحبّـائـي كـان عيشـاً هنيّـا
إيهِ يا صَحبُ هل شجاكم بعادي؟ — فلقـد سيقـت الكـروب إليّـا!!

كانت صرخات الاستحسان تتجاوب مع الإلقاء البديع، لهذا الشعر الصادق العاطفة، البديع النَّظْم، فطلبتُ المزيد من هذا الشعر الرائع، واستجاب الأستاذ محمد لطلبي، وقال:

ـ ونظم الشيخ هذه القصيدة الحلوة سنة ١٩٣١م:

يمِّـمْ حِمـى وادي حمـاهْ — واقـضِ اللُّبـانـة مـن هـواه
وتنقَّلَـنَّ بـأرضـه — بيـن الأزاهـر والميـاه
يـا قلـبُ ويحـك كـم تئـنُّ — بليلـك السّـاجـي دُجـاه!
تتـذكّـر الإلـفَ الجميـل — وطيـبَ عيـشٍ فـي حِمـاه
أوّاهُ مـا أحلـى أويـ — ـقـاتٍ مضـتْ أوّاه.. آه!!.
عيـشٌ لـذيـذٌ نـاعـمٌ — وزمـانُنـا بـالأنـس زاه
البُعـد قـد سحـق الفـؤا — د فصـار ميْتـاً فـي حشـاه
ليـت التـدانـي عـائـدٌ — فنـذوقَ مـن شهـدٍ جَنـاهْ!

كان الأستاذ محمد يتفرّس في وجوه الحاضرين، وهو يلقي قصيدة الشيخ في شبابه، ثم نظر إلى الشيخ عبد المعزّ وقال:

ـ هات أسمِعْنا مما تحفظ من شعر الوالد يا عبد المعزّ.

وأكدّ الأستاذ نعسان على طلب عمّه، فاستجاب الشيخ عبد المعزّ لهذا الطلب في حياءٍ جمّ، وأنشد:

ـ قال الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ في دمشق وغوطتها:

إن رُمـتَ تنظر جنّـة الـدنيـا ففـي — مغنـى دمشـق يُسَـرُّ طَرْفُ النـاظرِ

وإذا أردتَ محاسناً قد جُمّعتْ فاشرعْ إلى بحر الجمال الزَّاخر
فهي الخَرِيدةُ تَزدَهي في حُسنها وتَتِيهُ إذ تُجْلَى بوجهٍ زاهرِ

فهتف السادة العلماء :

ـ الله الله . . . طيّبَ الله الأنفاس يا شيخ عبد المعزّ . . الله يرحمك يا شيخنا الشاعر المجيد .

وقال الأستاذ محمد :

ـ ألا تحفظ شيئاً من غزليات الشيخ يا ولدي؟

أجاب الشيخ عبد المعزّ ، وقد زاده الحياء بهاءً :

ـ بلى يا عمي أحفظ .

ـ هاتِ أسمعْنا إذن .

فأنشد عبد المعزّ من شعر والده الشيخ هذه الأبيات البديعة :

جَذَبتَ يدي إليك فسِرْتُ أسعى وقلبي قائل : سمعاً وطاعهْ
لعمرُكَ ما المحبُّ أخا امتناع إذا ناداه من يهوى أطاعهْ
حبيبُ الرُّوح إمّا شاء أمراً رآه المُدنَفُ المُضْنى متاعهْ
لدى هذا الحبيب دمي وروحي فيا ويلاه إن شاء الإضاعهْ

تعالت الصيحات والآهات، فسكتَ عبد المعز، وكانت ابتسامة الشيخ سعيد تضيء وجهه، وترقص شعرات لحيته الشقراء التي ما فتئ يعبث بها طوال فترة الإنشاد، ثم قال الشيخ سعيد :

ـ أسمعنا ، يا شيخ عبد المعزّ ، من رقائق شعر الوالد .

واستجاب عبد المعزّ فوراً ، وقال من محفوظاته من شعر الشيخ :

يا أرحم الرُّحماء مالي حيلةٌ إلا الرُّجوعُ إليك يا ربّاهُ
أنا قد أسأتُ، وأنت ربٌّ غافرٌ غوثاه مما قد عرا، غوثاهُ!
يا سيِّدي، يا من إليه شكايتي أوَّاه ممّا نابني، أوَّاه

أدركْ بلطفك نادماً ذا حسرةٍ   مستغفراً ممّا جنته يداهُ
ما للضّعيف إذا ألمّتْ كربةٌ   إلاَّ الدُّعا: أللهُ يا أللهُ!
يا ربِّ نفِّسْ عن عُبَيْدك كربةً   وأرحه ممّا قد عنا ودهاه

صارت الصّيحات صُراخاً وبكاء ونحيباً، واغتسلت اللّحى الطاهرة بدموع الخوف والوجد، وتحرّكت المواجع تأوّهات وتهليلات وتكبيرات، وطلب المزيد من هذا الشعر الرقيق، فأنشد الشيخ عبد المعزّ لوالده الشيخ:

يا ربِّ إنَّ الذّنب أثقل كاهلي   وغدوتُ محسوباً من الأشرار
بدِّلْ بفضلك حالتي وإساءتي   حتى أُضافَ لُزْمرة الأخيار

سعيد: الله الله! . . .

عبد المعزّ:

يا قلبُ حُلَّ عزيمة الإصرار   والجأ إلى الرَّبِّ الكريم الباري

سعيد:

يا قلبُ حُلَّ عزيمة الإصرار   والجأ إلى الربّ الكريم الباري

عبد المعز:

فعساه يرحم مُثقَلاً بقيوده   ويُحِلُّه أمْناً وحُسْنَ جِوارِ

محمود: الله الله يا سيِّدي الوالد.

وتسايلت الدموع غزاراً، فيما استمرّ عبد المعزّ في التغريد من شعر والده:

هي الرُّوحُ تَسري في الهوى حيثما يَسْري
وتصعد في نجد، وتهبط في غَوْرِ

سعيد: الله الله يا شيخ محمد!.

عبد المعز:

وكـلُّ مُنـاهـا أن يكـون أليفهـا بمشهدها، والبُعْدُ من أنكرِ النُّكـرِ

سعيد: يا سلام يا سلام ما أروع هذا الكلام!

وكـلُّ مُنـاهـا أن يكـون أليفهـا بمشهدها، والبعد من أنكر النُّكرِ

عبد المعز:

وأنكَـرُ منـه أن يكـون متيَّـمٌ قصيّاً، ومَرْميّاً بشيء من الهَجْرِ
فـذاك أسىً فـوق الأسـى ومـرارةٌ بجانبهـا يحلـو الزُّعـاقُ مـن المـرِّ

سعيد: فذاك أسى فوق الأسى.. هات يا شيخ عبد المعزّ هات.

عبد المعز:

ولـولا لـه الآمـالُ بـالقرب واللّقـا قضى حَزَناً، أو غاص في أبحر الضُّرِّ
ولكنّهـا تبـدو فيغـدو بفـرحـة ويسكن مرتاحاً، ويأمُلُ باليُسْرِ

وأخرج الشيخ عبد المعزّ منديلاً ناصع البياض من جيبه، ومسح عرقه الذي بدا كحبّات اللؤلؤ على جبينه العريض، وإذا الشيخ سعيد يقول له:

ـ أسمعنا، يا شيخ عبد المعزّ، بعض أبيات القصيدة الحائيّة، في مدح سيّد البريّة، عليه أفضل الصلاة والسلام.

فهبّتْ عاصفة تهتف: صلّى الله عليه وسلم.

فاستجمع الشيخ عبد المعزّ ذاكرته، ثم شرع يغرّد:

يا حبيبَ الرحمن، يا صفوة الخلق ويـا مُنيتـي وراحـةَ روحـي
يـا وليِّـي وسيِّـدي وإمـامـي أنـت لـي خيـرُ مُشفـقٍ ونصيـح
لا أبي، ولا أخي، ولا صدرُ أمي لا ولا ذو الإخـاء خِـذْنُ الـروح
بلغـوا شـأوك العلـيَّ ببـرٍّ أو وفـاءٍ أو فـي الحنـان الصحيـح

أحمد: الله الله... لا أحد يبلغ شأوك يا رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عبد المعز: حبُّ هذا النبيِّ.

فصاح الحاضرون إلا الأستاذ محمداً: الله الله.. الله الله...

عبد المعزّ:

حـبُّ هـذا النبـيِّ سـرُّ انقيـادي وأخـو الحبّ مـا بـه مـن جمـوح
والمحبّـون طـائـرون قلـوبـاً وبباب الحبيب كم من طريح!
مَلَـك الحبُّ أمرهـم فـاستكـانـوا لهـواه أسـرى إسـارٍ مـريـح
ويخـافـون أن يكـون انفكـاكٌ أو بـراحٌ يـريـح مـن تبـريـح

سعيد: الله.. الله يخافون من الانفكاك..

عبد المعز:

حبّذا العيش والرِّضا عيشُ قومٍ فـي غـرامٍ كـم فيـه مـن مستـريـح

بعد أن هدأت النفوس التي هاجت وماجت وهي تستمع لهذا الشّعر الجميل، نظر الأستاذ محمد في ساعة يده، وقال:

هيّا بنا إلى الصّلاة.

أوقفتُ المسجّل، ثمّ قمنا إلى صلاة الظهر، وسمعت بكاء وأنا أصلّي، فلمّا سلّمتُ عن يميني وشمالي، شاهدت دموعاً تخطُّ خطوطاً على الخدود وفوق اللّحى، وعجبتُ لحالي، كيف لم أتـأثّر كما تأثّـر هـؤلاء العلمـاء الأفاضل، ثمّ عزوتُ هذا إلى جهلي، وضعف إيماني، وانعدام تجاربي، وقسوة قلبي، وبُعْدي عن هذه الأجواء الرُّوحانيّة.

وكان الدُّعاء للشيخ محمود مزيجاً بين الآخرة والأولى، دعا دعاء حاراً للوالد، وترحّم على الشهداء، ولعن الظالمين، واستنزل غضب الله عليهم، وختمه برقائق الدُّعاء، وكم تمنّيتُ لو سجّلتُ ذلك الدّعاء.

ثم قمنا إلى الغداء، وكان غداء شهيّاً، وشاهدت عمّي الشيخ سعيداً يأكل وهو يهزّ رأسه ويتبسم، ثم قال:

ـ هذا الغداء الشـهيُّ في حاجة إلى دعابـات الشـيخ رحمـه الله ، وإلى شعره .

فقال الأستاذ فارس :

ـ أنا أروي لكم نكتة من نكات الشيخ رحمه الله . .

كان الشيخ الحامد والشيخ السباعي ومجموعة من الإخوة يتسامرون ، وحكى الشيخ الحامد بعض النِّكات عن أهل حمص ، فما كان من الدكتور السباعي رحمه الله تعالى إلا أن يقول للشيخ الحامد :

«اسمعْ يا شيخ محمد . . إمّا أن تسكت عن الحماصنة ، وإمّا أن نقطع عليكم نهر العاصي» .

فأجابه الشيخ الحامد على الفور :

«حمصي . . والله بيعملها» .

وضحكنا من هذه النكتة ، حتى اغروقتْ عيناي أنا بالدموع .

وقال الدكتور أحمد :

ـ من منكم يحفظ قصيدة الشيخ في الفول؟

فتوجّهت الأنظار إلى الشيخ عبد المعز ، فأسـرعتُ إلى المسـجِّل ، وفتحتُه ، قبل أن يتحفنا الشيخ عبد المعز بقصيدة الفول .

قال عبد المعز :

ـ هذه القصيدة الفريدة في بابها ، نظمها الوالد رحمه الله ـ في مصر سنة ١٩٤٠م وذاعتْ واشتهرتْ وسارتْ بها الرُّكبان ، كما يقولون :

ألا يا محبَّ الفول أصغ لِقَوْلتي ... فقد عاد هذا الفول موضعَ فتنتي
يسيـل لُعـابـي إن شممـتُ عبيـره ... ويخذلني صبري ، وتضعف قوّتي
وعينـيَ قـرَّتْ مُـذْ رأتنـيَ مُقبـلاً ... عليـه بقلـبٍ صـادقٍ وبهمّـةِ

* * *

ألا يا محبَّ الفول خذني مربّياً ... وكن سامعاً قولي، مُجلاًّ نصيحتي
فَفُوْلٌ فؤولٌ فاحترسْ من تشاؤمٍ ... فإن اسمه يقضي بحُسْن المظنّةِ
وإنك إن تأكله كلَّ صبيحةٍ ... ترَ الخيرَ سَحّاً في الضُّحى والعشيّةِ
فكُلْه بليْمونٍ وزيتِ طحينةٍ ... وثومٍ وفجلٍ، واصطحبْه بشطّةِ
ولا تزهدَنْ في هذه فهي عنصرٌ ... له الفضلُ في تحصيل طيبٍ ولذّةِ

* * *

ألا يا محبَّ الفول! إنّا لمَعْشَرٌ ... بلغنا بأكل الفول حدَّ البطولةِ
فكن راشداً واقبلْ نصيحة وامقٍ ... وعن حُبِّ هذا الفول لا تتلفّتِ
ألا ليت شعري هل أدوم مصاحباً ... له، إن بُعدي عنه يسْفِكُ عَبْرتي
وإن غرامي فيه غيرُ مفارقي ... وذاك لعمرُ الفول أصلُ بليّتي!!
حلفتُ بحقّ الفائحات بعطره ... له القلب مرعى في منام ويقظةِ
وقد علمَ الأقوامُ أنّي مُدْنَفٌ ... عُرِفتُ بحبّ الفول بين عشيرتي

سعيد: يا سلام...

عبد المعز:

أهيبُ بقومي أن يهبّوا لأكله ... وإني لأرجو أن يدينوا بنحلتي
ألم يعلموا ما فيه من طيب مطعم؟ ... ومن حُسْن لون قد تجلّى بشقرة!!
عسى قِدرةُ الفوّال يعْبق ريحُها ... فيظهرَ فضلُ الفول في كلِّ بقعة
وأنتم، أُهَيْلَ الفول أزكى تحيةٍ ... لكم، من فؤادٍ عامرٍ بالمحبّة

الوالد: يا سلام. كلُّ هذا الشعر الجميل في الفول، فكيف لو ذاق شيخنا رحمه الله هذه الأطايبَ من اللحوم؟.

أحمد: الفول في مصر سيِّد الطعام.

عبد المعز: ولذلك نظم الوالد قصيدة أخرى في الفول الذي يأكله الناس جميعاً في مصر. قال الوالد رحمه الله تعالى:

يا عُصبةَ الفول دمتم لي ودمتُ لكم ... ودام مَـرْبَعُكـم بـالفـول مـزدانـا
عشقتـم الفـولَ أشيـاخـاً وشبّـانـا ... وقـد أقمتـم لهـذا العشـق بـرهـانـا
هـذي قـدورُكـمُ بـالفـول زاخـرة ... أزيـزُهـا مَـلأَ الأكـوانَ ألحـانـا
وريحهـا عطّـرَ الأرجـاء قـاطبـةً ... حتـى غـدا كـلُّ قلـبٍ فيـه وَلْهـانـا
وقـد أحبّكـمُ مـن ليس يعـرفكـم ... (والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا)
ياعِتْرتي، يا أُهَيْلَ الفول مجدُكمو ... سام، وحاسدُكم قد بات حيرانا
أكلتمُ الفوفل حتى جلَّ قدْرُكمو ... ونلتـمُ بهـواه فـي المـلا شـانـا

أحمد:

يا ويلي مَنْ لا له في جمعنا صِلَةٌ ... حقٌّ لـه أن يـذوق الجـوع ألـوانـا
فـالفولُ من رغبـتْ عنـه سـريرتُه ... كـان الجزاء قِلًى والحظ حِرمانا
ومـن يكن راغبـاً فيه على شـغفٍ ... نـال القبـولَ وأولينـاه إحسـانـا

نعسان: يا سلام ما أروع هذا الشيخ . . .

حاتم: كثيراً ما أكلنا الفول معه . .

سعيد: أحفظ أبياتاً للشيخ - رحمه الله - في الفول رائعة . . منها:

رجعتْ بيَ الذكرى إلى عهد مضى بين الغصونْ
حيث الرياضُ، وحيث بحرُ النِّيل قد ملأ العُيونْ
والرّيحُ تسحب ذيلها، لا عَصْفَ فيها أو سكونْ
وعبيـر قِـدْرِ الفـول يحمـل بُشْـريـاتٍ للبطـونْ
وأزيـزُهـا يُملـي علـى الأسمـاع أنـواعَ اللُّحـونْ

فعلّق الأستاذ محمد بقوله:

- هذا شعر.

وقلت أنا:

- ولكنْ . . يا ليته كان في غير الفول.

فقال والدي :

ـ لكلٍّ مقام مقال يا بنيّ . . ولا بدَّ من ترويح القلوب ساعة بعد ساعة ، حتى لا تمَلَّ ، لأنَّ القلوب إذا ملَّتْ عميتْ .

وقال الأستاذ محمد :

ـ هكذا شأننا نحن الشعراء . ولذلك انصرف الشيخ عن الشعر إلى الفقه والعلوم الشرعية ، لأنه كان يعدُّ الشعر من لغو الحديث .

وعلّق الشيخ عبد المعزّ بقوله :

ـ ولذلك كان شعره الذي بين أيدينا ، هو الذي قاله في شبابه . . فيما بين ١٩٢٨ ـ ١٩٤١م ، ولهذا لم يجمع شعره ، فضاع كثير منه .

وبعد الغداء ، وبعد أن شربنا الشاي ، عاد السادة العلماء إلى الحديث عن الشيخ الحامد ، ولا حديث لهم غيره ، وهذا ما حبّبني فيهم وفيه ؛ فيهم لهذا الوفاء لشيخهم ، والحنين إلى ذكرياتهم معه ، وفيه ، لما في الشيخ من صفات نادرة ، ما كنت أحسبني أراها في رجل من أبناء هذا الزمان .

قلت لأعمامي العلماء الأفاضل :

ـ هل كان الشيخ الحامد يعتني بالشباب؟ أم أنه كان منفّراً لهم ، كبعض المشايخ عندنا؟ .

فعاتبني أبي بلطف وقال :

ـ يا بنيّ لا تعرِّض بأحد ، وخاصة المشايخ ، فهم مظلومون .

اعتذرتُ لأبي ولأعمامي عما بدر مني ، ثم قال الدكتور أحمد :

ـ الشيخ ، رحمه الله ، مرشد الشباب ، وقد التفّ الشباب حوله ، ينهلون من معينه العلميّ الثرّ ، ويتسابقون لتلقّي توجيهاته الروحية السامية بكل أدب وامتثال ، ويبادرون لسماع نصائحه الغالية ، ليطبّقوها على أنفسهم ، ويلتزموها في سلوكهم . كان الشباب حريصين على حضور خطبه

ودروسه، ومجالسه، وكان الشيخ لهم الأب والأستاذ والمرشد، يحبّهم ويحبّونه، ويمارسون نشاطهم الدَّعويّ تحت مظلّته الوارفة، ويبسط الشيخ جناحيه ليضمَّهم إلى دفء قلبه، مدافعاً عنهم، مشفقاً عليهم مما قد يترتّب على نشاطهم من تبعات أمام الخصوم، فتارةً يقول بأعلى صوته:

«نحن دعاة حقّ وسلام نؤمن به وندعو إليه . .

نحن طريقُنا العلمُ والذِّكرُ والحرص على الصّالح العامّ . .

نحن نرفض الفوضى والتشويش . . ».

صادق: ما معنى هذا؟

أحمد: كان الشيخ يصف للخصوم والأعداء المتربّصين بأولئك الشباب حقيقةَ إخوانه وتلاميذه الذين يعجّ بهم المسجد، وأنه لن يصدر عنهم إلا الخير والسَّهر على مصلحة الأمة والمجتمع . . . يريد أن يحميهم من كيد الكائدين.

محمود: كان الوالد يقول هذا من باب السياسة الشرعية . . السياسة المرحلية وللتمويه على العدوّ، وإلا، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، وهو ممتزج بروح الشيخ رحمه الله تعالى، وبعظمه ولحمه.

أحمد: سأله أحد الإخوة الشباب عن التوجّه إلى الخدمة الإلزامية بقوله:

«ألن نقاتل تحت راية عميّة جاهلية؟».

فأجابه الشيخ بحزم:

«لا تكونوا سُبّة على التاريخ وأمام الأجيال».

وقد فهم الشباب ما أراده الشيخ من هذه العبارة، وما فيها من دلالات وإشارات للالتحاق بالمؤسسة العسكريّة، وقد سمعتُه يقول مرّة في الجامع الجديد:

«إنّ الزمن الذي كانت تُحَلُّ فيه الأمور من فوق المنابر ذهب وولّى،

وإن استخدام القوّة خير وسيلة لإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل».

وكان يعيب على أولئك الذين يستشيرونه للتهرّب من الخدمة الإلزامية.

صادق: هل كان للشيخ نظريّة معيّنة في تكوين الشباب؟.

أحمد: كان الشيخ يرى أنّ المسجد هو الأساس في تكوين الجيل، وإعادة بناء كيان الأمة المنهار.. ففي المسجد يتلقّى الشباب العقيدة الصحيحة، ويتعلمون أحكام الدّين الحنيف، ويتربّون على الأخلاق الحميدة، ويتعودون على الفتوّة والمروءات.

وكان الشيخ يؤكّد على تسليح الشباب بالفكر السليم، والعلم الصحيح المستمدّ من كتاب الله وسنّة نبيه.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

أحمد: ولا يرضى بالانتماء العاطفيّ المجرَّد، وكان يقول:

«العاطفة تهدمها عاطفة مثلها، أمّا العلم فإنه يستعصي على الهدم».

وكان يحثّ الشباب على مداومة الذّكر، وتنقية السّرّ، ويقول:

«طريقنا يعتمد على التخلية قبل التحلية».

مستدلاً بقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكان يحضّ الشباب على حفظ كتاب الله تعالى، ويحذّرهم من نسيان ما حفظوه، ويشجّعهم على الإكثار من رواية الحديث الشريف، والسيرة النبويّة المطهّرة، وسِيَرِ الصّحابة الكرام، وتراجم التابعين وتابع التابعين، وأيام المسلمين ومعاركهم.

وكان يحثّهم على دراسة العلوم الشّرعيّة، ويشير على الآباء أن يدفعوا بالأذكياء من أولادهم إلى المدارس الشرعية، كما لابدّ من النهوض بالفروض الكفائية التي إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، كالتخصص بالعلوم

العصرية، والتقنيات الحديثة التي تحتاجها الأمة، وتستغني بها عن الدول الأجنبية.

وكان يمنع الشباب من السفر إلى الدول الأجنبية، إلا لتحصيل اختصاص نادر يؤدّي به الشاب فرضاً كفائياً، ويشترط أن يكون الطالب مزوّداً بالإيمان العميق، والعلم الصحيح، والخلق الفاضل، وأن لا يكون هذا الاختصاص في الدول العربية والإسلامية.

صادق: هذا رائع.. رائع جداً.

أحمد: وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ يحثّ الشباب على الصُّحبة الصالحة ويقول:

«الصاحب مناسب.. الصاحب ساحب».

وكان يقول:

«لا تصحبْ إلا من يُنهضك حالُه، ويدلُّك على الله مقالُه».

وكان يدعو الشباب إلى الانتماء والالتحاق بركب الحركة الإسلامية، بالتصريح تارةً، وبالتلميح تارة أخرى.

صادق: كيف؟

أحمد: حدّثني أخ من حمص قال:

زرتُ الشيخ في مرضه مع مجموعة من الشباب المسلم المنتمي لمجالس العلماء، وتحدّث الشيخ الحامد رحمه الله عن الإمام الشهيد حسن البنا وعن حركة الإخوان المسلمين حديثاً أخذ بألبابهم، ومجامع قلوبهم، ثم توجّه إليهم بهذا السؤال:

«ألستم من الإخوان يا شباب؟».

فأجابوا جميعاً: بلى.

وكانوا كذلك.

صادق: هنيئاً لهم.

أحمد: وعندما زار الشيخ الحامد مع مجموعة من تلاميذه، الشيخَ حسن حبنَّكه ـ رحمه الله ـ في دمشق، وتحدّث الشيخ حبنَّكه عن الحفاوة التي لقيها في دمشق بمناسبة قدومه من الحجّ، قال له الشيخ الحامد:

«إنّ الحكومات والدول الأجنبية لا يخيفها العلماء والمشايخ بعمائمهم، ولا الجمعيات الخيرية بنشاطاتها، ولا الطرق الصوفية بأذكارها، ولا العامة بتظاهراتها، إنما تخاف من هؤلاء الشباب» وأشار إلى من معه.

فتساءل الشيخ حبنكة:

«ومن يكون هؤلاء الشباب؟».

أجاب الشيخ الحامد:

«الإخوان المسلمون».

فصار الشيخ حسن حبنكة ـ رحمه الله ـ يداعب بيديه لحى أولئك الشباب.

سعيد: ولذلك.. كان شيخنا ـ رحمه الله ـ قلقاً من تقصير العلماء، وتقاعسهم، وبُعْدهم عن الحياة العامة، ودوران بعضهم حول مصالحه الشخصيّة.

أحمد: كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يرى أن أولى مسؤوليات العلماء، هي نقْلُ الإسلام كاملاً غير منقوص إلى أبناء جلدتهم، وهي مهمّة شاقة في زمن كثرت فيه الفتن، وازدحمت المبادئ والنِّحل، وصار الإسلام في داره وبين أهله غريباً. وكان يقول:

«خذوا هذا الإسلام حرّاً صافياً، وانقلوه كما أخذتموه».

وكان الشيخ يلحّ على العلماء أن يكونوا قدوة صالحة، ومثلاً أعلى في التقوى والزهد في حطام هذه الدنيا، وعدم الحرص على الزعامات،

وبمواجهة الأحداث بجرأة وشجاعة، وأن يكونوا رجال المهمّات الصعبة، يتقدّمون الصفوف في المخاطر، ويتعفّفون عند المغانم، وأن يكونوا مع الأجيال الصاعدة كالآباء مع الأبناء، وأن يكون الرابط بينهم: الحبّ والاحترام.

محمود: ولذلك كان أبي رحمه الله تعالى يهتف بقوّة:

«يا مدرّسي التربية الإسلامية، اجتهدوا في طلب العلم، فإنّ الناس بعد وفاة العلماء، سيميلون عليكم، ويسألونكم، ولن يجدوا غيركم».

نعسان: كأنّ الشيخ ينعى العلماء قبل أن يموتوا.

محمود: الحقّ.. أنه كان ينعى المرشد الكامل.

أحمد: وقد قال لنا مراراً وتكراراً:

«يا إخواني: إذا فُقِدَ المرشد الكامل آخر الزمان، فعليكم بالصلاة والسلام على سيّدنا رسول الله ﷺ كلَّ يوم أكثر من ألف مرّة، مع الالتزام الدقيق بالسنة الشريفة، والإخلاص لله تعالى، فإنّ ذلك يقوم مقام المرشد الكامل».

واتجهت الأنظار نحو الشيخ محمود، كأنها تستوثق من صحة هذه المقولة، فأكّدها الشيخ محمود بقوله:

ـ سمعت أبي ـ رحمه الله ـ يقول:

«الصلاة على النبيِّ ـ ﷺ ـ والإكثار منها، تقوم مقام المرشد الكامل».

فتسامعت عرائس الرِّياض تسبيح السادة العلماء، وصلواتهم على الرسول القائد محمد ﷺ، ثمّ قال الشيخ سعيد:

ـ هذه خلاصة ما انتهى إليه شيخنا الذي بدأ حياته سلفياً يعبُّ ما تصل إليه يده، وتقع عليه عينه من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ثم استقرَّ على مذهبيّة سلفيّة تتمسّك بالنصوص، وعلى تصوّف فقهي يتقيّد بالفقه، ويتعمق في التحقيق العلمي، ويتشدّد في الفتوى. وقد أفتانا وأفتى

الأجيال القادمة بما انتهى إليه علمه وفقهه وفهمه من أجل الوصول إلى المرشد الكامل الذي عزَّ وجوده في زماننا هذا . .

وأكد الدكتور أحمد والأستاذ فارس على ما ذكره الشيخ سعيد، ثم قال الدكتور أحمد:

ـ ثم إنّ شيخنا ـ رحمه الله ـ كان يحثّ الأجيال القادمة على حمل الأمانة بقوّة. . هل تسمعني يا صادق؟ هل تسمعونني يا أصحاب صادق؟ فأنتم الأجيال التي كان يخاطبها الشيخ رحمه الله، وكان يأمرنا، ونحن نأمركم بما كان يأمرنا به، يأمرنا بنقل ما أخذناه من الإسلام الصحيح إلى من يلينا من الأجيال وأن نتحلّى وتتحلّوا بالصّبر والعزيمة في عملية الأخذ والعطاء.

وقال الأستاذ محمد:

ـ الحقّ. . أنّ الشيخ الحامد كان يهتمّ بالشباب، ويحرص على تعليمهم وتوجيههم، فهم قادة الأمة في المستقبل القريب. واسمعوه يخاطب الآباء:

«أولادكم يا مسلمون فيهم استعدادٌ طيِّب، فهلاّ تسعون إلى استثمار هذا الاستعداد؟.

أشفقوا أن تُلْقُوا أفلاذ أكبادكم في النار، بترك الغوائل تغتالهم. . .».

أحسستُ بانتشاء وقشعريرة معاً، وأنا أستمع إلى كلمات الشيخ، ينطق بها زميله وتلميذه وولده، ونظرت إلى شريط المسجِّل فوجدته قد شارف على الانتهاء، فتشجّعت وقلت:

ـ يا أعمامي الأفاضل. شارف الشريط على الانتهاء، فهل تختمون حديثكم ببعض كلماته القيّمة؟.

فقال الأستاذ محمد:

ـ قل لمسجِّلك يسجِّلْ هذه الكلمات الرائعات التي جاءت في ثنايا خطبة عصماء للشيخ، دعا المسلمين فيها إلى الجهاد. قال الشيخ داعياً إلى

الثورة على الاستعمار الفرنسي، من فوق منبر جامع السلطان:

«أيّها المسلمون!.

أعدّوا أنفسكم للجهاد.. وطّنوها على الموت.. موتٌ شريف خيرٌ من حياة تعيسة.. ضربة بسيف في عزٍّ، خيرٌ من صفعة بيدٍ في ذلّ.. طعنة برمح في شرف، أحبُّ إلى القلب الكبير من نظرة شزراء في مهانة.. ركوب الصّعاب والأهوال في ارتفاع، أجلُّ بكثير من الرّاحة والدَّعَة في استخذاء».

«أيها الإخوان!.

إن العالم يرقبكم، وينظر من قُرْبٍ ومن بُعدٍ إلى هذا الصّراع بين الحقّ والباطل، بل إن رسول الله ﷺ وأصحابه ينظرون ما أنتم فاعلون، بما خلّفوا لكم من تراث مجيد عجنوه بدمائهم الزكيّة، فهل - يا ترى - تختلط دماؤكم بدمائهم في هذه الأرض، أم تضنّون بها، فلا يكون لكم حظٌّ من هذا السّخاء الشريف؟».

قلت في إعجاب:

- إذن.. كان الشيخ ثائراً بكل معنى الكلمة!.

فصاح عبد المعزّ:

- بل كان مجاهداً.. قل كان الشيخ مجاهداً بكل معنى الكلمة.. كان لا يهاب الموت.. تصوّرْ - يا صادق - أنه لم ينقطع عن خطبة الجمعة في أشدّ ساعات الخطر.. خطب وطائراتُ الاستعمار الفرنسيّ تضرب حماة، وتلقي قنابلها على المساجد.

وقال الشيخ محمود:

- سجّلْ عني هذه الكلمات التي قالها والدي رحمه الله تعالى:

«أشتهي وأتمنّى أن أكون مستشاراً لحاكم مسلم يحكم بما أنزل الله».

صادق: يا سلام! هذا رائع، ولكن.. أين ذلك الحاكم؟.

محمود: وقال:

«لو قامت دولة إسلامية في زماننا، فإنّ مذهباً من المذاهب الأربعة لا يسعها، بل يحتاج الإمام (أي الحاكم) أن يأخذ من المذاهب الأربعة».

محمد: ليته قال: من الكتاب والسُّنَّة.

محمود: وقال:

«طالب العلم ينبغي أن يجتهد كلَّ الاجتهاد في طلب العلم، ومن لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة، والعلم لا يعطيك بعضَه، حتى تعطيه كلَّك».

نعسان: وعنّا لصادق وإخوانه الطلاب.

محمود: «المنابر.. لم تعد في زماننا تحلُّ مشاكل المسلمين».

الجميع: هذا صحيح.

محمود: وقال أيضاً:

«ردُّ الكتاب ـ أي الرسالة ـ واجب كردّ السلام».

سعيد: يا ليت قومي يعلمون!.

وتوقَّف المسجِّل عن التسجيل لانتهاء الشريط، فانقطع الحديث الذي تناثر كالدّرر.

❊ ❊ ❊

وفي المساء عدنا إلى البيت، وكنت في غاية السعادة والسرور، وأسرعت إلى غرفتي، وفتحتُ المسجِّل من جديد، لأستمع إلى تلك الأحاديث الرائعة عن فضيلة الشيخ الحامد، وجاءت أختي صادقة تستمع معي إلى الشريط، وفيما نحن كذلك، إذا الشيخ الحامد واقف بقامته الحلوة، وعينيه الواسعتين، ولحيته الظريفة.

نهضْنا إليه، وسلّمنا عليه، فرحَّبَ بنا وهو يغضُّ من بصره، فلم أستغرب هذا من الشيخ الذي يتمتع بقسط وافر من التقوى والورع، وتذكرت كلام أحد تلامذته في الرحلة عندما قال:

«كان الشيخ في الصفّ لا ينظر في وجوهنا نحن الطلاب المُرْد ـ أي الذين لم تنبت لحاهم بعدُ ـ وكان ينظر في وجه طالب له لحية» .

اهتبلت الفرصة ، وقلت له ، بعد أن جلس واستراح :

ـ سوف أسألك ، يا شيخي عن أشياء كثيرة ، كثيرة ، فأرجو أن تحتمل غلاظتي .

فابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ملأتْ وجهَه ، وأضاءتْ نفسي ثم قال :

ـ وهل أنت غليظ ، يا بنيّ ، حتى أحتمل غلاظتك؟ .

فأجابت صادقة :

ـ أخي صادق ، وأنا أخته صادقة ، نحبّ العلماء العاملين ، وخاصة الأتقياء منهم ، وإذا جمعنا مجلسٌ مع واحد منهم ، فإننا نغتنم الفرصة ، وننهال عليه بالأسئلة ؛ مني سؤال شرعيّ ، ومن أخي سؤال حول مسألة علمية أو أدبية ، وهكذا نثقل بأسئلتنا على سادتنا العلماء .

شاهدت الشيخ يشيح بوجهه عن أختي ، مع أنها طفلة صغيرة ، ولكنها ذات عقل كبير ، ولسان يعرف كيف يعبّر عما يحتويه رأسها الصغير ، وقلبها الذكيّ ، ففرحتُ بأنني سوف أحظى بالقسط الأوفر من نظرات سيّدي الشيخ ، لأنّ العين مغرفة الكلام ـ كما يقولون ـ ثم تذكّرتُ طبيعة الشيخ ، وتصرُّفه في الصفّ مع التلاميذ المُردان ، فكيف معي ، وأنا أصغر من أكثر تلاميذه؟ .

وسمعت الشيخ يتساءل :

ـ كيف تحضرون مجالس العلماء أنت وأختك؟ هل تحضر أختُك مجالس الرجال؟ .

فتقدمتْ صادقة من جهة وجهه ، وقالت :

ـ مع أبينا الذي يحبُّك ويحترمك ويكثر من ذكرك .

وقلت أنا :

ـ إنّ أبانا يحضرنا مجالس العلماء منذ صغرنا أنا وصادقة .

فابتسم الشيخ الذي ما زال يهرب منا بوجهه ونظراته ، ثم قال :

ـ وهل كبرتما؟ .

فأسرعت صادقة تقول :

ـ نعمْ . . صرْنا نعي كلَّ كلمة نسمعها .

وقلت أنا :

ـ أمضينا اليوم في رحلة رائعة مع عدد من تلاميذك العلماء يا سيّدي ، وكنتَ مدار أحاديثهم طوال اليوم ، وأريد الآن أن أستكمل ما عندي من تساؤلات .

رحَّب الشيخ بأيّ سؤال أوجّهه إليه أنا أو أختي صادقة ، على أن يقفنا عند حدِّنا إذا تجاوزنا ، أو أثقلنا عليه ، وكدت أطير من الفرح بهذا اللقاء .

قلت لفضيلة الشيخ الجليل :

ـ هناك عادة لدى استقبال الحُجَّاج ، هي أنّ الناس الذين يحتفلون بقدوم الحاج ، يعمدون إلى أغصان الأشجار ، فيقتطعونها من الحدائق العامة ، أو من الأشجار في الشوارع ، ليزيّنوا بها بيت الحاج .

فقاطعني الشيخ قائلاً :

ـ فهمتُ . . فهمت . . إنهم يفعلون ذلك ، ظناً منهم أن عملهم هذا مشروع أو مباح لا إثم فيه ولا حساب عليه . . والعكس هو الصحيح . . وقد نبّهت إلى هذا في خطبة الجمعة وقلت فيما قلت :

«إنه ليس يملك أحد هذا التصرف السيّئ ، حتى ولا حرس الحدائق والمشاتل ، لأن الشجر ليس لهم ، بل هو للأمة ، وهم مؤتمنون عليه ، وليس يسوغ منهم التفريط في حفظه ، وعلى الدولة ، وفّقها الله ، أن تشدّد عليهم الأمر في الحراسة الواقية ، لئلا يذهب ما تنفقه كلَّ عام على الغرس في

مناسبة عيد الشجرة أدراج الرياح، ألا فليعلم الجاهلون أن الإسلام يدعو إلى تكثير الغرس لفوائدها الكثيرة، فهي ثروة عامة تكسب الأرض جمالاً، والهواء نقاء، والجوّ عبيراً بأرواح الأزاهير، والثمر كثرة، فننعم بما خلقه الله لنا منه، وهو القائل سبحانه: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يسٓ: ٣٣ـ٣٦].

وقلت في تلك الخطبة:

«وفي الحديث النّبويّ الشريف: «ما من مسلم يزرع زرعاً، أو يغرس غرساً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة» وفي الحديث أيضاً: «ما من رجل يغرس غرساً إلا كتب له الله من الأجر قدْر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس». وقال النبيّ الكريم عليه وآله الصلاة والسلام: «ما من امرئ يُحيي أرضاً، فيشرب منها ذو كبد حرَّى، أو تصيب منه عافية، ـ أي بهيمة أو طائر ـ إلا كتب الله بها أجراً». وقال أيضاً: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ـ أي شجيرة ـ فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها». وهذا من البلاغة والمبالغة بمكان رفيع. وقال أيضاً: «النخل والشجر بركة على أهله وعلى عقِبهم بعدهم، إذا كانوا لله شاكرين».

ثمّ قلت في تلك الخطبة:

«يا أبناء هذه البلاد!.

بلادكم من أحسن بلاد الدنيا، وأعدلها جوّاً، وطيب مناخ، فازرعوا ولا تقطعوا، ووفّروا ثرواتكم لأمتكم، فلا تذهب أثماناً للخشب المستورد من البلاد التي يحرص أهلوها على تنمية الأحراج، وتكثيف الأشجار، ليكسبوا أرضهم مالاً وجمالاً ونقاء هواء، وطيب مناخ».

وعندما سكت الشيخ الجليل، اقتربتْ صادقة مني، والتقمتْ أذني،

وهمستْ فيها كلاماً لأسأل الشيخ عنه، فسألتُه:

ـ عفواً سيِّدي الشيخ. هل تجوز السرقة من مال الدولة؟.

فبدا الغضب في سحنة الشيخ، ثم ما لبث أنْ سكتَ عنه غضبُه قليلاً، ليقول:

ـ لا تجوز هذه السرقة.

ـ لماذا؟ ما دامت الدولة كما قد عَرَفْتَ؟.

فأجاب فضيلة الشيخ:

ـ لأنّ الأموال التي في خزانتها يُنفق منها على المصالح العامة التي ينتفع بها المسلمون، ولهم الكثرة الغالبة في البلاد، فهم الشعب، كما ينتفع بها المواطنون الآخرون من غير المسلمين. والإسلام يأمرنا بتوفيتهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، وأن يعيشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وخصوصياتهم.

ـ هل يستوي في هذا الموظف وغير الموظف؟

ـ السارق إن كان من الموظفين المكلّفين برعاية هذه الأموال وحفظها، كان ذنبه أكبر، وإثمه أكثر، وإنه لمن الخائنين؛ فإنّ حفظ الأمانة من واجبات الإسلام، ولاتحلّ الخيانة مطلقاً، والحديث النبوي الشريف يقول: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

وإذا كان ذلك كذلك، كان هذا السارق مجرماً ومجترحاً للسيّئ من العمل، وعلى مَنْ علم به أن يكشف عن حاله، ويرفع أمره للمراجع الإيجابية كي تكفّ يده الخائنة عن العمل، وتلحق به من الجزاء والنّكال ما يليق بإثمه وجرمه، والسترُ عليه يُعتبر في الإسلام مشاركة له في معصيته، يستحق بها الساتر العقاب، كما يستحقه السّارق. وقد قال النبيّ الكريم عليه وآله الصلاة والسلام: «من يكتُمْ غالاً فإنه مثله».

ـ ما معنى الغالّ يا سيّدي؟.

أجاب الشيخ الجليل :

ـ الغُلول هو السرقة من المغانم قبل قسمتها، ومثله في المعنى، مالُ الخزينة العامة .

صادقـة : هل يسـوِّغ هذه السرقة، احتجاجُ بعض الموظفين بضآلة راتبه، وأنه يريد أن يعيش كما يعيش سائر الناس يا شيخنا الجليل؟ .

الشـيخ : هذا الاحتجاج مردود عليهم، من حيث إن الرواتـب فيها كفاية لأربابها، في غالب الأحوال .

صادقة : لنفترض أنّ الراتب لا يكفي صاحبه الموظف، فهل يجوز له أن يسرق؟ .

الشـيخ : معاذ الله . . ثمّ . . لنفرضْ أنّ بعض الموظفين لا تكفيهم رواتبهم، ففي إمكانهم استرحام الدولة لمنحهم زيادة تناسبهم ليرتفقوا بها، وإن الموظف له كفايته في بيت المال . وإن لم يُجابوا إلى طلبهم هذا، فما عليهم إلا أن يسـلكوا سـبيل العمل الحرّ الذي يكون المرء به أميـر نفسه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥١ ـ ٥٨]، ثمّ لينظر هؤلاء إلى من هم دونهم في العيش والرزق، حتى لا يزدروا نعمة الله عليهم .

صادق : هل يجوز للموظف أن يستعمل الخطوط الهاتفية الداخلية أو الخارجية، في مكالمات خاصة دون دفع الأجرة المقدّرة لتلك المكالمات؟ .

الشيخ : لا يجوز هذا، فهو أكلُ المال العام بالباطل، وعلى الموظفين حراسة هذه الخطوط من السرقة والعبث، وعلى كلّ موظف أن يعلم أنه مؤتمن على ما في يـده من آلات وأمتعة، وليـس يسـوغ له استخدامها في أمـوره الشخصية، كاستعمال الهاتف والسيارات الرسمية في مصالحه الخاصة، وكتكليف آذن الدائرة بخدمة بيته وأولاده .

صادق : هل تذكر لنا أمثلة من تاريخنا الإسلاميّ يوضّح هذا يا سيدّي؟

الشيخ : هناك أمثلة كثيرة، أذكر لكم منها هذه الحادثة :

دسّتْ زوجة أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه في البريد هدية من عطر العرب إلى ملكة الرُّوم، وردّتْ ملكةُ الرُّوم بالمثل، فأرسلتْ هديةً إليها. ولمّا علم عمر بهذا، أبى إلا أن يجعل في بيت مال المسلمين ما زاد من هدية ملكة الرُّوم، على ما بعثتْه زوجتُه إليها، وردَّ على زوجته قدْرَ هديتها.

صادقة: لماذا يا جدّي؟.

الشيخ: لأنّ البريد الذي حمل الهدّيتين ذاهباً وآيباً، هو بريد المسلمين، وليس بريد زوجة أمير المؤمنين.

صادق: يا سلام.. ما أروع هذا! هل هناك مثال آخر يا سيِّدي؟.

الشيخ: كان لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - قمقمٌ يتوضأ من مائه المسخّن في مطبخ المسلمين وهو لا يعلم، ولمّا علم، أمر بأن يُحسب مقدار ما يسخن به من الحطب طوال تلك المدة، ليشتري به حطباً من ماله الخاص، فيجعله في مطبخ المسلمين.

صادق: الله أكبر.. ما أورعك يا عمر يا حفيد عمر.

الشيخ: وجاءه - رضي الله عنه - رسولٌ ليلاً من بعض البلاد، فدخل وأوقد له عمر بن عبد العزيز شمعة غليظة، ثم سأله عما ينبغي السؤال عنه من أمر الرعيّة، وكان الرجل يجيبه، ثمّ قال له الرجل: كيف حالك، يا أمير المؤمنين؟ وكيف عيالك؟ فأطفأ عمر الشمعة الكبيرة، وأشعل فتيلة صغيرة، وأجابه عما سأله عنه من خصوصياته.

فعجب الرجل من تصرّف عمر وقال له:

يا أمير المؤمنين، رأيتك فعلتَ أمراً ما رأيتُك فعلتَ مثله.

فسأله عمر: وما هو؟

قال الرجل: إطفاؤك الشمعة عند سؤالي إياك عن حالك وشأنك.

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز:

«يا عبد الله! إنّ الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين، وكنت أسألك عن حوائجهم وعن أمورهم، فكانت تلك الشمعة تَقِدُ بين يديّ فيما يصلحهم، وهي لهم، فلمّا صرتَ تسألني عن أمر عيالي ونفسي، أطفأت نار المسلمين».

صادق: الله أكبر.. ما أعظمك يا سيِّدي يا أمير المؤمنين!.

الشيخ: قولوا هذا للموظفين والأمراء والحكام، لعلهم يقتدون، أولعلّهم يتشبّهون بأولئك الأجداد العظام الذين تربَّوا في أحضان الإسلام.

صادق: وما قولك في الرشوة يا جدّي؟.

الشيخ: أعوذ بالله.. إنها خيانة، وقد جاء في الحديث النبويّ الشريف: «لعن اللهُ الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما».

صادق: هل يجوز للموظف أن يقبل هدية مَن له علاقة بوظيفته؟.

الشيخ: لا يجوز.. لأنّ المُهْدي لا يُهْديه مجّاناً، إنه يريد أن يقبض ثمن هديته مساعدة منه له على حساب المصلحة العامة. والنبيّ الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: يقول: «من استعملناه على عمل، فرزقناه رزقاً، فما أخذه بعد ذلك فهو غلول» أي سرقة من مال المسلمين.

صادق: يا لطيف.. أنا أسمع الكثير من زملائي وأصدقائي عن آبائهم الذين يستغلّون وظائفهم، ويأخذون الهدايا من المراجعين، ولا يعدّونها رشاوى.

الشيخ: هذا من الجهل مرة، ومن الفساد الذي يعمّ الأجهزة والدواوين الرسمية مرات. روى البخاري رحمه الله تعالى عن أبي حُميد الساعدي قال:

استعمل النبيُّ.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: رجلاً من بني أسد، يقال له: ابن الأتبية، على صدقة - أي على جمع الزكاة - فلمّا قدِمَ قال: هذا لكم، وهذا أُهديَ إليّ. فقام النبيُّ.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«ما بالُ العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا أُهديَ إليّ؟ فهلاّ جلس في بيت أبيه وأمّه فينظر: أيُهدى إليه أم لا؟. والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر» ثمّ رفع يديه حتى رأينا عَفرَتَيْ إبطيه - أي بياض إبطيه - وقال: «ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلّغت؟».

صادق: ما معنى (تَيْعَر) يا سيِّدي؟.

صادقة: أنا أجيبه يا جدّي إذا سمحت.

الشيخ: هاتي يا صادقة.

صادقة: الرُّغاء: صوت الجمل، والخُوار: صوت البقرة، واليَعَار: صوت الشاة.

صادق: شكراً لك يا أختي.

الشيخ: ولعلكم تذكرون قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

صادق: صدق الله العظيم. لديّ بعض الأسئلة حول سلوك بعض الموظفين، فحلْمَك عليّ يا سيِّدي.

الشيخ: تفضّلْ يا بنيّ. اسألْ عمّا تريد.

صادق: هل يحلّ للموظف أن يأخذ شيئاً من الأسلاك أو الأخشاب أو سواها من أدوات بعض المؤسسات؟.

الشيخ: لا يجوز هذا مطلقاً، وهو داخلٌ في عموم ما ذكرنا من التحريم.

صادق: عظيم. . وهل تجوز السرقة من الدوام الرسميّ؟ فقد تصل سـرقة بعض الموظفين إلى ثلث الدوام أو أكثـر، وقد لا يحضر أحـدهم مطلقاً، ثم يسجّل حضوره في سجلّ الدوام.

الشيخ: هذا حرام أيضاً.

صادقة: لماذا يا جدّي؟.

الشيخ: لأنّ الراتب الذي يتقاضاه، هو مقابلٌ بالعمل الذي يعمله. . الراتب مقابل الدوام الذي ينبغي أن يشغله بالعمل الجادّ، فإذا أخلّ بدوامه أو بعمله، كان آخذاً للمال بغير مقابل، فالنسبتان متقابلتان تمام التقابل.

صادقة: أريد أن أخرج من دائرة الموظفين إلى دائرة أخرى، فهل تسمح يا جدّي؟.

الشيخ: تفضّلي يا ابنتي. . سلي ما شئت.

صادقـة: ما رأيكم فيما نشـره فلان الفلاني في المجلـة الفلانيـة، وتحدَّى الشريعة الإسلامية، وزعم أنّ في الحضارة الحديثة بدائل عنها؟.

الشيخ: من رأى منهجاً أتمَّ وأكمل مما أتى به سيّدنا محمد ﷺ عن ربّه سبحانه وتعالى، فقد برئ من الإسلام، وبرئ الإسلام منه. قال الله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣].

وقال سبحانه:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾؟ [المائدة: ٥٠].

وقال أيضاً:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٨].

فالإســلام أتمُّ نظام وأكملُه، وعقيدتـه لا يعتريها ضعف في أنفس

أصحابها، لأنها منقولة ومعقولة، تحرسها البراهين، وتدعمها الأدلة، وما تزداد على الأيام إلا جدّةً وشدّة ومتانة فيمن شرح الله صدره للإسلام. وقد قال المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام، مخبراً عن هذا الواقع الحقّ والشريف معاً:

«. . . ولن تزال طائفة من أمّتي على الحقّ، ظاهرين، لا يضرّهم من خالفهم، حتى يأتي أمرُ الله» أي حتى تقوم القيامة وتأتي الساعة.

وكلام ذلك الكاتب منبعث عن ملقٍ ونفاق وتزلّف يأباه الإسلام، ويمقته الإيمان، ويحكم الدّين على من يتقبّله بالردّة والمروق، لأنه مكذِّب بالآيات التي تلوناها قبل قليل، بزعمه الذي زعمه زوراً وبهتاناً.

صادقة: بارك الله فيك يا جدّي العالم الجليل. والآن. . ما رأيكم في خروج المرأة إلى الجهاد في سبيل الله؟.

الشيخ: خروج النساء للجهاد، ومشاركة الرجال فيه، مسموح به، بل مفروض فرضاً عينياً إن وطئ العدوّ جانباً من أرض الإسلام، إذ يجب على أهلها عموماً، النفير العام، فيخرج العبد بلا إذن سيّده، والولد بلا إذن والده، والمدين بغير إذن دائنه وكفيله، والمرأة بغير إذن زوجها، بشرط أن يأمن الفتى والمرأة على أعراضهما أن تُهتك. ففي تلك الحال تتساقط كلُّ الحقوق الخاصّة تلقاء هذا الأمر، لدفع ضرر استيلاء العدوّ الذي يعقب أسوأ العواقب، ويفضي إلى أوخم النتائج.

صادقة: هذا في حال الدفاع.

الشيخ: أمّا إذا أريدَ قتال العدوّ في عُقْر داره، فإن كان الجيش الإسلاميّ قليل العدد، حرم إخراج النساء فيه، إذ قد يُنكب بهزيمته، فيتعرّضن للسّباء وهتك الأعراض، وهو سُبّة على الأمّة، وثلمٌ لشرفها، ودرءُ المفاسد مقدّم على جلب المصالح.

صادق: وماذا عن حياة الشهداء يا سيّدي؟.

الشيخ: حياة الشهداء يا بنيّ، لا تدركها العقول البشرية، لأنّ عالم

الملكوت لا يقاس على عالم الملك . . وقد رُوي عن النبيّ الكريم .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : أنّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تَرِدُ أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظلّ العرش. فالشهيد يتمتع بالحياة الكاملة، ولكننا لا نعرف كيفيتها، والموتى وإن كانوا كلّهم أحياء لاتصال أرواحهم بأجسامهم، لكنّ الشهداء أكمل حياة من غيرهم، والأنبياء أكمل حياة من الشهداء، وهي ثابتة للذات والروح جميعاً، فهي حياة حقيقية، ولا يلزم من كونها حقيقية، أن تكون الأبدان معها، كما كانت في الدنيا من الاحتياج للطعام والشراب وغيرهما من صفات الأجسام التي نشاهدها في الدنيا، بل يكون لها حكمٌ آخر، فأكلُهم وشربُهم للتلذذ لا للاحتياج. أرواح الشهداء متصلة بأجسامهم اتصالاً قوياً، وإن كان مقرّها حواصل الطيور. وقد رُوي عن الحسن أنّ الشهداء أحياء عند الله تعالى، تُعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرَّوح والفرح، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون غدوّاً وعشيّاً، فيصل إليهم الوجع. فوصولُ هذا الرَّوح إلى الرُّوح هو الرزق، والامتياز ليس بمجرّد الحياة، بل مع ما ينضمّ إليها من اختصاصهم بمزيد القرب من الله عزّ شأنه، ومزيد البهجة والكرامة، والله أعلم.

صادق : نريد القول الفصل في الإسراء والمعراج. هل كانا يقظة بالروح والجسد الشريفين.

الشيخ : نعمْ . . كانا يقظة وبالروح والجسد الشريفين معاً، هذا هو القول الفصل الذي اتفق عليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً. ولو أنهما كانا مناماً فقط، لما استبعدهما المشركون، ولما ارتدَّ ضعاف الإيمان من المسلمين. فكلّهم يعلم أنَّ الروح تجول في الملكوت حيث شاء الله في منامها، ولا يستغرب هذا أحد، ولكنّ الغرابة عند غير المؤمنين، وقوعهما بالجسد والرّوح معاً. والله سبحانه يقول: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ١]، وهو للجسد والروح معاً.

صادق: هل الملائكة، يا سيّدي، ينتمون إلى عالم الأرواح، ولا علاقة لهم بالأجسام؟.

الشيخ: لا . . الملائكة أجسام مخلوقة من نور، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يقال عنهم إنهم ذكور أو إناث. وهم مطيعون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. وقد قال الرسول ﷺ:

«خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم». وللملائكة قدرةٌ على التشكلات الجميلة.

صادق: وما دام الشيء بالشيء يُذْكر، أرجو أن تحدّثنا عن الجانّ يا سيّدي.

الشيخ: يجب الإيمان بوجود الجنّ، هذا أولاً وقبل كلّ شيء. ثم أقول: الجنّ ذوو أجسام لطيفة نارية، لهم قدرة على التشكلات المختلفة. ومنهم المطيع ومنهم العاصي.

صادقة: قرأت، يا جدّي العزيز، كتاباً يتحدث عن حكمة التشريع. حكمة الصلاة، وحكمة الزكاة، وحكمة الصيام، وحكمة الزكاة، وحكمة الحج، وما إلى ذلك، وكم أتمنّى أن يكثر علماؤنا من تأليف مثل هذا الكتاب فهل أنا على حقّ في هذا؟ لأن أخي هذا سمع كلاماً آخر حول ما يُكتب عن حكمة التشريع.

الشيخ: اسمعي يا ابنتي. . الأصل في العبادة، قَصْدُ وجهِ الله الكريم بها، دون أيّ ملاحظة لأمر آخر، فإنّ كلّ النظرات ثانوية بالنسبة إلى هذه النظرة، بل لا يسوغ إلا اعتمادها، والاتجاه إليها، وإلا . . كان الأمر معلّلاً بحبّ العاجلة . . الدنيا . . التي طلب الله إلينا أن نرتفع عن مستواها، فإنّ حبّها هو الداء العَياء، وفطم النفس عنها هو الشفاء: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ ـ ٢١].

وإنّ شأن المؤمن، الانقيادُ والخضوع والإذعان لتشريعات الله وتعليماته، والاعتداد بأمره ونهيه، موفياً عبوديته لربّه حقّها، فالحلال

ما أحلَّه الله له، والحرام ما حرّمه عليه، والدين ما شرعه له. هذا مع اعتقاد أنّ حكمة الله منثورة في مشروعاته، ومبثوثة في تعليماته، من حيث إنه سبحانه، حكيم عليم، لا يأمر إلا بما فيه نفع، ولا ينهى إلا عمّا فيه ضرر.

وقد بدت حكمٌ كثيرة في المشروعات الإلـٰهية، يزداد بها المؤمن استبصاراً واطمئناناً. ومهما أنعم النظر في التعرف إليها بالقدر المسموح به، فاح له عبيرها، وهبّت عليه نسائمها، فعبدَ اللهَ عبادة العارف المستنير، وازداد إلى نور التسليم نورَ الفهم عن الله، والوقوف على أسرار الأوامر والنواهي.

صادق: هل معنى هذا أنّ حكمة التشريع واضحة في كلّ العبادات يا سيّدي؟.

الشيخ: لا.. فقد يطوي اللهُ حكمةَ بعض الأحكام ابتلاءً لعباده، إذ يعاملهم معاملة المختبر العالم بخفايا ما يطوون من نيّات، وهو العليم بذات الصدور، لكنه يريد إقامة الحجّة عليهم، مما يكون منهم إزاء حدوده التي أمر بأن لا تُتَعَدَّى، وحُرُماته التي طلب أن لا تُنتهك.

صادقة: إذن؟.

الشيخ: إذن.. لا مانع من حسن العرض للأحكام، وما يحفّ بها من فوائد ومنافع، شريطة أن لا تكون هي المقصد، دون التقرب إلى الله بالعمل خالصاً لوجهه الكريم، طبقاً لما يمليه علينا الأمر النبويّ القائل:

«يا أيها الناس، أخلصوا أعمالكم، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما خلص له، ولا تقولوا: هذه لله وللرحم، فإنّها للرحم، وليس لله منها شيء، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس لله منها شيء».

فالمطلوب هو التعبّد المحض، والطاعة الخالصة التي فرضها الله علينا، سواءٌ أظهرت الحكمة منها أم لم تظهر.

لَحَظَ الشيخ تململي، وعرف أن لديّ سؤالاً أريد أن أسأله، وأتردّد في سؤاله، فقال لي:

ـ هل لديك ما ترغب في قوله يا بنيّ؟.

ـ نعمْ يا سيّدي.

ـ تفضّلْ وسلْ ما بدا لك.

ـ أريد أن أعود إلى حديث الجنّ، فالناس في زماننا هذا يكثرون من الحديث عنهم، وسؤالهم عن أمور غيبية، وعن المسروقات وما شابه هذا، فماذا تقول يا سيّدي؟.

لملم الشيخ أطراف جبّته الفضفاضة، ثم قال:

ـ كما قلت لكم قبل قليل: الجنّ من مخلوقات الله، كبني آدم لا يعلمون الغيب، وعلمُهم مقصور على ما يشاهدون، دون المستقبل، ودون ما يخفى عليهم من الوقائع. والله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، والله لا ﴿يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، والغيب لا يختص بالأمور المستقبلة، بل يشمل الأمور الواقعة التي هي غائبة عن الشخص، وعلى هذا، فالجني وغيره سواء في عدم العلم للغيب. والرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، ينهى عن تصديق الجان فيما يخبرون به من الغيب بقوله: «من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد».

فسألتْ صادقة عن الكاهن، فأجاب فضيلة الشيخ:

ـ هو الذي يتعاطى الإخبار عن الكائنات في المستقبل، ويدّعي معرفة الأسرار، كمكان الشيء المسروق أو الضائع ونحوهما، عن طريق صاحبه الجنّي.

ـ والعرّاف؟.

ـ العرّاف هو المنجّم الذي يخبر عن المستقبل بطلوع النجم وغروبه.

ـ والحاصل؟ .

ـ الحاصل : أنّ العرّاف والكاهن والرمّال والمنجّم والذي يزعم أنّ له صاحباً من الجنّ يخبره عما سيكون . . كلُّ هؤلاء مذمومون شرعاً ، ومحكوم عليهم وعلى مصدّقهم بالكفر . وإذا لم يجز سؤال الجنّ عن المسروقات ، لم يكن إخبارهم عنها دليلاً شرعياً ، وإذا لم يكن إخبارهم دليلاً شرعياً ، كان اتّهاماً للبرآء .

وسألتْ صادقة عن القول بسخرية القدر ، كما يكتب بعض الكتّاب ، فاستشاط الشيخ غضباً ، مستنكراً مثل هذا الكلام ، وقال :

ـ القدر لا يسخر . . وربُّنا سبحانه حكيم عليم ، لا يتطرّق إلى قضائه وقدره عبثٌ ولا سخرية ، ولا شيء من نحو هذا الذي يعتري البشر ، فلنكن وقّافين عند الحدود ، وافين بالعهود ، ولا نصف الله سبحانه إلا بما هو أهله .

وسألتُ فضيلة الشيخ عن علاقة الحظّ بالقضاء فأجاب :

ـ الحظّ من جملة المقدورات الإلـٰهية ، إذ كلُّ شيء بقضاء وقدر . والإيمان بالقدر أساس من أسس العقيدة ، وركنٌ من أركانها ، ونحن نؤمن بالحظّ على أنه قدرٌ من الأقدار ، كما أنّ الحرمان قدرٌ من الأقدار ، وقد ييسّر الله أسباب المحبوبات لبعض عبيده لينالوا ما قسم لهم منها ، وقد تحول الأقدار بين العبد وبين ما يريد .

قالت صادقة :

ـ أرجو أن لا تضيق بأسئلتنا يا جدّي العزيز ، فلطالما حلمنا بلقاء شيخ عالم عامل مثلك .

فردّ فضيلة الشيخ الحامد وهو يبتسم في سرور ظاهر :

ـ لا لا يا أولادي . . أنا مسرور جدّاً بهذه الأسئلة التي ثارت في زماني ، وأجبتُ عليها . . فاسألوا ما تشاؤون .

اهتبلتُ الفرصة السانحة وقلت:

ـ هل تسمح يا سيِّدي بالحديث عن مأساة العرب والمسلمين في فلسطين التي احتلّها اليهود، وشرّدوا وقتلوا الكثير من أهلها، وهم يزعمون أنها بلادهم، وأنها أرض الميعاد، وقد عادوا إليها؟.

اعتدل الشيخ في جلسته، ورفع كلتا يديه، حتى نزل كمّاه عن معصميه، وزوى ما بين حاجبيه، ثم قال:

ـ جاء اليهود من مصر، واحتلوا الأرض المقدّسة، ثمّ شتّتهم الله في الأرض عقاباً على فسقهم وبغيهم وكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق. قال الله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ثم جئنا نحن العرب المسلمين، وملكناها بالفتح الإسلاميّ، فهي ملكُنا بتمليك الله إيانا لها، وقد طرد الله منها خلوف السوء، إخوان القردة والخنازير (اليهود) فهي لنا، ونحن لها، وإنّا إليها لعائدون بإذن الله، وإننا لمنتصرون عليهم إن شاء الله، وعدَنا بذلك نبيُّنا، عليه وآله الصلاة والسلام، مذ أخبرنا بأننا سنقاتل اليهود آخر الزمان، فنقتلهم ونغلبهم، ولا شكَّ في موعود الله سبحانه.

صادق: وكيف ترى حالنا مع اليهود اليوم وغداً يا سيِّدي الشيخ؟.

الشيخ: هذا هو الهمّ الذي أقلقني وأبعدني عن الهدوء، وزجّ بي في غمرات الحزن.. ولمَ لا أحزن، والخطر يدنو، والشرُّ يكبر، والأمر لا يزداد على الأيام إلا شدّة، وقُوى الشرّ لا تنفكّ تؤيد العدوّ المغتصب، وتدفع عنه، وتمدّه بما يزيده لجاجاً في باطله، وإمعاناً في غيّه.

وصعَّد الشيخ زفرة حرّى، ثم تابع يقول:

ـ أيُّ شرّ هذا الشرّ الذي مُنِيْنا به؟.

وأيُّ غفلة غَفْلتُنا عن تقدير حقيقته؟.

الويل لنا إن دامت غفلتنا، وطال ثواؤنا على الأباطيل، وتعلّقنا بالأماني والأحلام، دون أن نواجه الحقائق المُرّة القاسية.

اليهود اللُّعناء أهاروا ألمانية ـ الدولة العسكرية القوية ـ في حربين عالميتين متواليتين بمكرهم الخفيّ، وكيدهم الدائب، مع أنها فطنت لهم، ونكّلت بهم تقتيلاً وتشريداً فما أغنتْ عنها فطنتُها شيئاً. فما القول فينا، ونحن في بدء التكوّن العسكري، وأول الظهور السياسي؟.

هل من الحزم أن ننام على الوهم، ولا نقدر عدوَّنا الماكر الخبيث قدره، لنعمل على إحباط خططه التي إن تمّ له تنفيذها، كانت كارثة لم يمرَّ بالعرب والإسلام شبيهٌ لها، أو نظير؟.

إننا لن نذكر حروب الصليبيين، ولا إغارات التتار، بجانب الشرّ المبيَّت لنا من هؤلاء اليهود، الذين هم أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا، كما ينطق القرآن الكريم.

صادق: كيف استطاع هؤلاء الخبثاء تنفيذ خططهم يا جدّي؟.

الشيخ: من المؤسف أنّ جانباً من خططهم نُفِّذ بالمساندة الفاجرة لهم من خصوم الإسلام وأعدائه، فخلتْ بلاد من أهلها، وامتُهنت كرامات، وديست مقدّسات، ووقعت هزائم، وللأسف الشديد، ما كان كلُّ هذا ليعيد إلى الأمة رشادها الذي أضاعته باللهو والعبث، وسلوك السُّبُل التي لاتفضي بسالكها إلا إلى التحطم في الهاوية.

صادقة: والحّل؟.

الشيخ: الحلّ في أن تحسن الأمّة صلتها بالله، وتدخل في حصنه الآمن، وهو الإسلام المحض؛ إيماناً صادقاً، وعملاً صالحاً، وتطبيقاً لنُظُم الدين في الشؤون كلها.. أن تعيدوها إسلامية أولية في السياسة والحرب والسلم، والحكم والبيت، وفي المسجد والشارع والمدرسة، بهذا تأخذ الأمّة لنفسها أماناً من عقاب الله، وتستنزل نصره العزيز، بنصرة دينه، وإقامة كتابه، وتحكيم شرعه ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]، فالطرق كلُّها مسدودة، والأبواب جميعها مغلقة، إلا طريقاً واحداً وباباً واحداً، هو طريق الإسلام المنير الحكيم، الذي ينتهي بالسائرين

فيه إلى باب السعادة والعزّة والرضوان والمغفرة، وهو مفتوح على مصراعيه، وربُّنا سبحانه يدعونا إليه.

صادق: كيف؟.

الشيخ: التاريخ يجيبك.. فالذي أنقذ البلاد من الصليبيين هو هذا الإسلام، وهو نفسه الذي طرد منها التتار، وهو الذي أثار الحماسة، وبعث القوة، وأحيا الطمع في الشهادة، بعد أن خلط القلوب المؤمنة بعضها ببعض، وألّف بينها، فكان الفوز، ونزل النصر.

صادقة: وماذا عن اليهود يا جدّي؟.

الشيخ: اليهود أقدر الناس على إفساد الأفراد وإفساد الجماعات. وأمكر الناس، وأحذق الناس للفتن، يبعثونها من رقادها، وأعدى الناس لهذا الإسلام، فقد كادوا للإسلام منذ نشأته الأولى، وصدموه في عراك مسلّح، وما وقعة الأحزاب (غزوة الخندق) وحصار المدينة المنوّرة إلا صُنْعُ أيديهم، ونتاج أفكارهم، أرادوا بها وأد الإسلام، وقتل نبيّ الإسلام، وسَبْيَ بناته وأزواجه ونساء المسلمين، بعد أن يشفوا صدورهم قتلاً وولوغاً في دماء الصحابة رضي الله عنهم. ومن قبلُ همُّوا بقتل النبيّ ﷺ، بإلقاء حجر عليه. ولمّا يئسوا من مواجهة النبي الكريم ﷺ، التفتوا إلى الدسّ والفتنة وكانوا من وراء قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وكان عبد الله بن سبأ، وكان وكان.

صادق: إذا كان الأمر كذلك، فهل نأمن مكرهم إنْ نحن هادنّاهم؟.

الشيخ: حالنا مع اليهود لا تقبل هدنة، ولا تدنو من صُلْح.. إنها عقدة لا تحلّها إلا القوة، وإنهم يسابقوننا إليها، ليأكلونا بها، ويذيبونا في أحشائهم، فلنأخذْ نحن بأسباب القوة التي تخضد شوكتهم، وتكسر رؤوسهم، وتردّهم على أعقابهم مدحورين.. لا بدّ من القوة المعنوية إلى جانب القوة المسلّحة.. لا بدّ من قوة النفس وصلاحها، وصلتها الوثقى بالله تعالى العزيز القدير ناصر المؤمنين.. ولن تكون لنا قوّة، والميوعةُ

أصلٌ لدينا معتمد، والحربُ للدِّين طريقٌ معبّد، ومحاربة الله بالفسق عن أمره مُعْلَنٌ بها . التقوى عنصر النصر الأقوى، والحرب بيننا وبين اليهود واقعة حتماً، إن لم تكن الآن ففي المستقبل، أخبر بها سيّدنا رسول الله .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : فقال : «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهوديّ : يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي فاقتله» .

صادقة : هذا الحديث الشريف يفيد أننا سوف ننتصر على اليهود آخر الأمر .

الشيخ : أجلْ يا ابنتي، شريطة أن تنقشع عن قلوبنا سُحُبُ الأوهام، وتتبدّد ظلمات الغفلات عن الله، ونستمسك أشدّ الاستمساك بدينه المتين .

فهتفتُ بأعلى صوتي :

ـ ألا فلتصغِ الأمة بسمعها إلى دعوة الحقّ، ولتجتمع كلمتها، ولتتوحَّدْ صفوفها .

فعلّق الشيخ على هتافي بقوله السّديد :

ـ فالألفة رحمة، والفرقة عذاب، وإنّ تصدُّع صفوف الأمة قوة كبرى لأعدائها عليها .

ثمّ رفع يديه إلى السماء، وأغمض عينيه، وابتهل :

ـ اللهمّ ألّفْ قلوبنا، وأصلحْنا وأصلحْ ذاتَ بيننا، واهدِنا إلى الحقّ، وإلى طريق مستقيم . آمين .

وسألتْ صادقةُ فضيلة الشيخ عن النظريّات العلميّة وعن موقف الإسلام منها، فأجاب في تأنٍّ شديد :

ـ ما فتئ العلم الحديث يتحفنا في الحين بعد الحين بطُرَفه، ويطالعنا بنظرياته، ويكشف الغطاء عن كثير من المحجوبات الكونية، فيسدي إلينا أيادي بيضاء نقدّرها له أتمَّ تقدير . ذلك لأنّ الدين الإسلاميّ أخو العلم

الصحيح، وقرينه، دعا إليه بنصوصه الكثيرة المعلومة لكلّ من ينظر في القرآن الكريم نظرة إمعان ورويّة، ويقرؤه قراءة تدبّر وتفكّر واستنارة واستبصار. وما من شكّ في أنّ الإيغال في البحث عن المكونات، داعٍ إلى الإيمان، وداعمٌ له، يشدّ أزر العقيدة، ويثبتها.

غير أنّ هذه النظريات متفاوتة الثبوت.. بعضها مقطوع به، ولا سبيل إلى جحده وإنكاره، وبعضها ما يزال قيد الدّرس والبحث، وبعضٌ آخرُ ظهر زيفه وبطلانه، بعد أن كان محسوباً في نظر أصحابه من الحقائق.

سكت فضيلة الشيخ لحظات، ثم تابع يقول:

ـ وبما أنّ بعضاً من النظريات الحديثة يلامس ما عرض له الكتاب الكريم بالإثبات أو بالنفي، وجب أن يقف المسلمون منه موقفاً يلائم العقيدة والإيمان، ويوائم هدي القرآن الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، فيثبتوا ما أثبته، وينفوا ما نفاه. وما لم يتعرّض له بإقرار ولا إنكار تركوه للتحقيق العلميّ، فهو وحده الذي يتحمل تبعة إقراره أو إنكاره. وليحذروا أن يغلبهم الهوى، وتحكمهم العاطفة، فيحاولوا تنزيل الكتاب المحكم المتين الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر، على فِكَرٍ حديثة ما تزال متأرجحة، ليس لها من البرهان ما يجعلها ثابتة أو مسلّمة الثبوت. ولو فعلوا ذلك، والتمسوا من الآيات الكريمة تأييد نظرية ظهر ـ بعدُ ـ بطلانُها، لأساؤوا إلى دينهم إساءة بالغة، إذ يمكّنون خصوم الإسلام وأعداءه من الطعن فيه، وأن يقولوا: إنه باطل، لأنّ نصوصه تؤيّد الباطل.

شكرْنا فضيلةَ الشيخ الحامد على ما تفضّل به من رأي صائب، ثم اعتذرتْ صادقةُ عن الإجهاد الذي نسبّبه له، ولكنّ فضيلة الشيخ أبدى سروره بهذه الأسئلة، وطالبَ بالمزيد منها، على أن ننقلها كما هي إلى زملائنا وأصدقائنا، فوعدناه بذلك، ثمّ سألته صادقة عن القرآن المكيّ، والقرآن المدني، أو عن السُّور والآيات المكيّة، وكيف نميّزها من المدنيّة، فاعتدل في جلسته، ومسح بكلتا يديه على لحيته الكثّة، ثم قال:

ـ مدّة نزول القرآن الكريم ثلاث وعشرون سنة، ثلاث عشرة سنة في

مكة، وعشر سنوات في المدينة. فالقرآن المكيّ هو الذي نزل قبل الهجرة، ولو كان مكان نزوله في غير مكة، والقرآن المدنيّ هو الذي نزل بعد الهجرة، أينما كان هذا النزول. وقد استخرج العلماء فوارق بين هذين النوعين من الوحي.

أولاً: إن آيات الأحكام التي فيها بيان الفرائض والحدود، أكثرها مدنيّ. أمّا المكّيّ، فأكثر آياته يرجع إلى تشييد بناء العقيدة الصحيحة، وهدم الشرك، ومهاجمته، وغسلِ السرائر وتطهيرها من أوضار الرذيلة وأدرانها، وتزيين الفضيلة وإحلالها في القلوب، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

صادق: ثانياً؟.

الشيخ: ثانياً: يغلب على صيغة الخطاب المكيّ أن تكون بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، أو ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، إلا في مواضع معدودة، أمّا المدني، فالغالب فيه أن يكون الخطاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

ثالثاً: الآيات المكيّة قصيرة، أمّا المدنية فهي أطول منها.

رابعاً: وقع ذكر المنافقين في الآيات المدنية، لأنّ النفاق ظهر في مجتمع المدينة وما حولها، ونشأ المنافقون بعد الهجرة الشريفة.

صادق: جميل.

الشيخ: خامساً: كلُّ سورة فيها سجدة فهي مكيّة، إلا سورة الحجّ، فالراجح أنها مدنية.

سادساً: كلُّ سورة فيها كلمة (كلاّ) مكيّة.

صادق: لماذا يا سيّدي؟.

الشيخ: لأنّ (كلاّ) للزجر والتقريع اللذين يتناسبان مع جبابرة المشركين في مكة، أمّا المدينة فقد كان اليهود من سكانها، وهم أذلاّء ضعفاء، وخطاب الضعيف ليس كخطاب القويّ.

صادقة: ما هي أبرز المشروعات في المدينة المنوّرة، بعد الهجرة يا جدّي؟.

الشيخ: أخوّةُ الإسلام.. أعني التآخي الذي شدَّ رباطه سيّدنا رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكلّ مهاجر أخاً من الأنصار، حتى كانت تلك الأخوّة في الله أقوى بكثير من أخوّة النّسب.

صادق: ويا ليتنا نعود إلى إحياء الأخوّة في الله فيما بيننا، لأننا نرى كثيراً من الإخوان اليوم، يكادون يكونون خالين من هذا الحسّ الشريف خلوّاً تامّاً، فلاتعاطف ولا تراحم ولا توادّ ولا تراؤف، اللهمّ إلا قليلاً من ذلك لا يروي غلّة، ولا يفيد ريّاً.. كلُّ همِّ أحدهم راحةُ نفسه، وسيّان لديه تعبُ أخيه وراحتُه وحياتُه وموتُه. وهذا ملموس بالمشاهدة والاستقراء، حالُهم ما ترون: تراشقٌ بالشتائم، وسباب، وتضارب وتطاحن، وهذا ما ينكره الإسلام الذي ندين به.

الشيخ: أعوذ بالله.

صادقة: ثم ماذا عن أبرز المشروعات الأخرى في المدينة يا سيّدي؟

الشيخ: هناك أشياء كثيرة.. كمعاملة المنافقين واليهود والنصارى، وكقتال المشركين.. والصوم، والصلاة، والزكاة، والحجّ، والآداب العامة، والآداب البيتية، والمعاملات المدنية، والأحوال الشخصية.

صادقة: ماذا عن المنافقين يا جدّي؟.

الشيخ: كان المنافقون من العرب الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، وكان هؤلاء المنافقون يكيدون للإسلام أشدّ الكيد، ويظهرون أعداء الإسلام على مواطن الضعف في الدولة الإسلامية الوليدة، فكان ضررهم كبيراً جداً، لا يقاس به ضرر غيرهم، لأنهم العدوّ الداخلي المخالط، ولذا فإن عقوبتهم في الآخرة من أنكى العقوبات. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥].

صادق: هذا في الآخرة.

الشيخ: صدقت.. أمّا في الدنيا، فإن سيّدنا رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: كان يقبل ظواهرهم، ويكلُ ضمائرهم إلى الله عزّ وجلّ.

صادق: فقط؟.

الشيخ: لا.. فلم يُؤثَرْ عن النبيِّ أنّه ولّى رجلاً منافقاً عملاً له، لئلا يجد المنافق ثغرة أو ثلمة تساعده على الإضرار بالمسلمين.

صادق: وكذلك ينبغي أن يكون قادة الأمة، متأسّين بالنبي الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: فلا يجوز لهم أن يولّوا الأعمال العامّة إلا الصادقين المخلصين أصحاب الماضي النظيف، والسيرة الصالحة، والسلوك المستقيم.

الشيخ: أحسنتَ يا ولدي.. ولكنْ مَنْ يولّي مَنْ؟.

صادقة: واليهود والنصارى يا جدّي؟.

الشيخ: كان هؤلاء - قبل البعثة النبويّة - يتشوّفون إلى النبيّ المنتظر، الذي بشّرت به التوراة والإنجيل، وكان اليهود، إذا قاتلوا العرب المشركين، استفتحوا عليهم بالنبيّ المنتظر.

صادق: عفواً يا سيّدي.. ما معنى استفتحوا عليهم؟.

الشيخ: أي استنصروا الله تعالى بالنبيّ المنتظر الذي سوف يؤمنون به، ويقودهم، ويحارب أعداءهم العرب المشركين.

صادقة: ولكنهم لم يؤمنوا به عندما بُعث.

الشيخ: هذا لأنهم من أشقى الأمم، فقد تمكّن منهم الحسد، وضاقت عيونهم أن تصير النبوّة إلى بني إسماعيل عليه السلام، فكفروا به، وهم يعلمون أنه هو النبيّ المنتظر.

وكزَّ الشيخ الجليل على أسنانه وهو يقول:

- ألا لعنة الله على الكافرين.

صادق: ألم يُسْلم منهم أحد؟.

الشيخ: بلى.. أسلم منهم بعض رؤسائهم، كالحَبْر عبد الله بن سلام، وتبعهم بعض عامّة اليهود.

صادقة: هل كان اليهود متفاهمين مع المنافقين ضدّ المسلمين يا جدّي؟.

الشيخ: طبعاً كانوا متفاهمين متعاونين متضامنين.. يتعاونون على الإثم والعدوان وأذى الإسلام وإيذاء نبيّ الإسلام محمد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: على الرغم من العهد الذي عقده الرسول الكريم مع اليهود.

صادقة: ما فحوى ذلك العهد يا جدّي؟.

الشيخ: فحوى ذلك العهد، تركُ الحرب والأذى، فلا يغزوهم المسلمون ولا يضرّونهم، وهم - مقابل هذا التعهد - لا يثيرون حرباً على المسلمين، ولا يمالئون عليهم عدوّاً، وإن هاجمهم في المدينة مهاجم، فعليهم نصرةُ المسلمين، ومقاتلة المهاجمين، ولم يجبرهم النبيُّ ﷺ على الإسلام، بل تركهم وما يدينون، لا رضاً بالكفر، بل لأنّ لهم من العلم بقايا قد تدفعهم إلى الإسلام. ولكنّ الشقيّ هو الشقي ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨].

صادق: هل حافظ اليهود على عهودهم يا سيّدي؟.

الشيخ: إذن لا يكونوا يهود.. إذ ما لبثوا أن نقضوا ما عاهدوا عليه النبيَّ والمسلمين، وأعانوا المشركين غير مرّة، فبدّدهم الله الكبير المتعال بأيدي المؤمنين ما بين قتيل وشريد، وأمن المسلمون شرور عدوٍّ قريب يتربّص بهم الدّوائر.

صادقة: والنصارى؟.

الشيخ: النصارى كاليهود من حيث المعاملة، ضرب الله الجزية عليهم جميعاً، إلا أن يسلموا. قال الله تعالى:

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

صادقة: صدق الله العظيم.

صادق: على ذكر الجزية، هل تعطينا فكرة واضحة عنها يا سيّدي؟.

الشيخ: الجزية عبارة عن ضريبة تُفرض على رؤوس من دخل في ذمّة المسلمين من اليهود والنصارى، ممن يقدر على دفعها.

صادقة: وهذا معنى (عن يدٍ) أليس كذلك يا جدّي؟.

الشيخ: بلى يا ابنتي.. هكذا فسّرها بعض المفسّرين.

صادق: ما مقدار الجزية يا سيّدي؟ هل هي ضريبة باهظة؟.

الشيخ: بل ضريبة بسيطة، أقلُّ من الزكاة بكثير.. مقدارها ثمانية وأربعون درهماً في السنة، وتؤخذ من الأغنياء فقط، أمّا متوسّطو الدخل، فيدفعون نصف هذا المبلغ.. أربعة وعشرين درهماً في السنة، ويدفع الفقراء اثني عشر درهماً في السنة فقط. وهذه ضريبة يسيرة لا تكاد تُذكر إذا قيست بالضرائب التي تفرضها الحكومات على رعاياها. ثم إن هذه الجزية تُدفع مقابل ما ينعم به الذميّون من راحة وأمن على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، حتى إنّ التاريخ ليروي لنا من حسن معاملة المسلمين لأهل

الذمّة ما يدهش له الناظر فيه.

صادقة: هل تروي لنا حادثة على هذا يا جدّي؟.

الشيخ: نعمْ يا ابنتي.. فقد روت لنا كتب التاريخ أنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً من أهل الذمّة شيخاً كبيراً، فسأله عن حاله، فأخبره بضيق يده وفقره، فقال له عمر:

«ما أنصفناك. نأخذ منك الجزية شاباً، ونتخلّى عنك شيخاً» وأمر بالإنفاق عليه من بيت مال المسلمين.

صادقة: الله أكبر!.

صادق: تُرى.. ألم تؤثّر هذه المعاملة الطيّبة بأولئك الذميين؟.

الشيخ: بلى.. أثّرتْ في كثير منهم، فدخلوا في الإسلام أفواجاً، وقد نشأ عن هذا نقصٌ في موارد الدولة، حتى شكا منه بعضُ الولاة، فكتب إليه أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ عبد العزيز رضي الله تعالى عنه:

«إنّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً».

صادقة: يا سلام.. ما أروع هذا الكلام!. وما أروع عمر.

صادق: بل قولي: ما أروع الإسلام الذي أنجب مثل عمر.

الشيخ: ثمّ إنّ الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال الأحرار العقلاء، فلا تؤخذ من امرأة ولا صبيّ ولا عبدٍ ولا مجنون.

صادقة: يا سلام ما أروع هذا الدين.

الشيخ: ثمّ إنّ الجزية جزاء الحماية، لأنّ الذمّيين مُعْفَوْنَ من قتال الأعداء الخارجيين. إذن.. لا أقلَّ من أن يشارك أهل الذمّة في العمل على سلامة الدولة التي ينعمون في ظلّها بالأمن والسلامة، بجزءٍ يسيرٍ من المال.

صادق: وإذا شارك الذمّيّ في الدّفاع عن الوطن؟.

الشيخ: يُعفى من الجزية إذا هو قاتل مع المسلمين.

صادقة: ليس في التاريخ القديم والحديث، وليس في الدنيا كلّها كالمسلمين في عدلهم وإنصافهم، فأيُّ معاملة للأقليات تعدل معاملة الإسلام لهم؟.

صادق: وليتك تعلم، يا سيّدي، أيّ كوارث ينزلها اليهود والنصارى بنا نحن المسلمين في هذه الأيام، في فلسطين، في أفغانستان، في البوسنة والهرسك، في الشيشان، في أذربيجان، في الصومال، في السودان، في سائر بلاد الدنيا، وحيث وُجدَ المسلمون.. قتلٌ وتشريد واغتصاب للحرائر المسلمات.. ما فعله ويفعله الصرب في البوسنة، ومعهم سائر الكفّار في العالم، فوق كلّ وصف، وما يفعله الروس في الشيشان وسواها لا تدانيه نذالة الأنذال.. إنهم يشنّون حرباً عالمية على الإسلام والمسلمين في كل مكان.

صادقة: إذا سمحتَ، يا جدّي العزيز، أريد أن تحدّثنا عن بنات جنسي، عن المرأة، فلديّ أسئلة كثيرة، فهل تسمح بالانتقال إليها؟.

ـ تفضّلي يا صادقة.. سلي ما شئت.

صادقة: هل صحيح ما يقال من أن الإسلام قيّد المرأة بقيود ظالمة؟.

الشيخ: أعوذ بالله.. هذا افتراء على الإسلام، واجتراء على الحقّ.. الإسلام لم يغلَّ يدَ المرأة، ولم يقيّدها إلا بقيود أدبيّة ترفع مكانها، وتزيد في سموّها.. الإسلام أخذ بيد المرأة، وأنقذها من الظلم الذي كانت رازحة تحته في الجاهلية.. نعمْ.. أخذ الإسلام بيدها، وحرّرها تحريراً صحيحاً معقولاً، وأعطاها حقّها كاملاً غير منقوص، وجعلها قرينة الرجل في التكاليف والأحكام كلّها، إلا ما تقتضيه طبيعتها من الانفراد ببعض الخصائص، وهو في كلّ هذا لا يقيّدها، بل يراعي تكريمها واحترامها والعطف عليها، حتى قال رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهنَّ إلا لئيم».

صادقة: الله أكبر! ما أروع هذا الكلام.

الشيخ: وقال أيضاً لأصحابه رضي الله تعالى عنهم:

«خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي».

صادقة: عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

الشيخ: وكان ـ عليه السلام ـ يقوم بمهنة أهله بنفسه الشريفة، وكان يؤنس أزواجه، ويسمر معهنّ، وسابق السيدة عائشة مرّة فسبقَتْه، ثم سابقها مرّة أخرى فسبقها، فقال لها: «هذه بتلك».

صادقة: الله أكبر!. ما أعظمك يا سيّدي يا رسول الله.. وكيف كان حال المرأة في الجاهلية؟.

الشيخ: كانت تُسترَقُّ وهي حرّة، فتُباع وتُشترى، كأنها بهيمة أو متاع من الأمتعة، وكان بعض الجاهليين لا يرون القِصاص من الرجل إذا قتل المرأة، ويُعفُونه من الدِّية أيضاً، وكان كثير منهم يرون الحقَّ للأب في قتل بنته ووأدها، أي دفنها وهي حيّة، وكانوا يجبرون بناتهم على التزوّج ممّنْ يكرهْنَ.

صادقة: وكذلك يفعلون اليوم.

الشيخ: لا.. هذا لا يجوز، فقد أثبت الإسلام لهنّ كمال الحريّة في اختيار الزَّوج المناسب، فلا تُجَبرُ الفتاة البالغة على الزواج، لأن أمر زواجها منوط بها، وبمحض إرادتها ورغبتها، واسمعي هذا الحديث الشريف. دخلتْ فتاة على أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، فقالت: إنّ أبي زوّجني من ابن أخيه وأنا كارهة، فقالت لها أمُّ المؤمنين: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ. فلمّا جاء الرسول الكريم أخبرتْه بقصّتها، فأرسل إلى أبيها، فدعاه إليه، وأخبره أنّ الأمر يعود إليها، فقالت الفتاة: يا رسول الله، قد أجزتُ ما صنع أبي، ولكنْ أردتُ أن أعلم النساء أنْ ليس للآباء من الأمر شيء.

صادقة: يا سلام! ما أجرأ هذه البنت، وما أعظم تصرُّف الرسول القائد عليه الصلاة والسلام.

الشيخ: وكان من عادة العرب في الجاهليّة، أنّهم لا يورّثون إلا الذكور الكبار القادرين على القتال، ولا يورثون النساء، فأبطل الإسلام هذه العادة الذميمة، وورّث النساء.

وسكت الشيخ لحظة، وأخرج من جيبه منديلاً نظيفاً ناصع البياض، مسح به فمه، ثمّ تابع يقول:

ـ الإسلام ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى الرجل، على أنها إنسان مفكّر، ونفس محترمة، لها تفكيرها الشخصي، ولها إرادتها الخاصّة بها، ولها مشاعرها وعواطفها، بينما نرى نظرة بعض الأديان إليها على أنّها حيوان نجس لا روح له ولا خلود، وتجب عليها الخدمة والعبادة، وأن يكمّ فمها كالكلب العقور، لمنعها من الضحك والكلام، لأنها أحبولة الشيطان، وهي أحقر من أن تكون من نوع الإنسان.

صادقة: أعوذ بالله.. هؤلاء أوباش يا جدّي.

الشيخ: وقد اختلف رجال تلك الأديان المحرَّفة، فتساءلوا:

هل المرأة إنسان؟.

هل لها نفس وروح باقية كالرجل؟.

هل يسوغ تلقينها الدِّين؟.

هل تجوز عبادتها؟.

هل تدخل الجنة في الآخرة؟.

صادقة: ما هذا التخلّف يا جدّي؟.

الشيخ: نعمْ يا ابنتي.. كان بعضهم يرى أنّه لا يصحّ أن يكون للمرأة دين، وبناء على هذا، حظروا عليها قراءة كتب دينهم رسمياً.

صادق: بينما الإسلام جعل النساء شقائق الرجال.

الشيخ: والإسلام سوّى بين الرجال والنساء في الأحكام والتكاليف، ويسمّي الفريقين مؤمنين ومؤمنات، ومسلمين ومسلمات، وقانتين وقانتات، وأمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ تكون أوّل المؤمنين برسالة الرسول ﷺ، وتكون في مقدمة المناصرين له، والمعاونين على تأدية رسالة ربّه تبارك وتعالى.

صادقة: رضي الله عنها.

الشيخ: وقد بلغ من احترام الإسلام للمرأة، أنه بعد جمع القرآن في مصحف واحد، وضع الصحابة الكرام هذا المصحف عند أمّ المؤمنين حفصة رضي الله تعالى عنها.

صادق: أين هذا التصرّف النبيل من تصرّف رجال الأديان الأخرى؟.

الشيخ: قال الله تعالى في مُحكم كتابه العزيز:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال تعالى:

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

صادق: صدق الله العظيم.

الشيخ: اسمعوا هذه القصة.

صَعِدَ أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ـ منبرَ رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: ثم قال: «أيُّها الناس. ما إكثارُكم في صُدُق النساء (أي لماذا

تغالون في مهور النساء) وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصَّدُقات (أي المهور) فيما بينهم، أربعَ مئة فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة، لم تسبقوهم إليها». وهدّد الذين يغالون في المهور ثم نزل، فاعترضَتْه امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين. كيف تنهى الناس أن يزيدوا في مهور النساء على أربع مئة درهم؟ أما سمعتَ ما أنزل الله في القرآن؟.

قال عمر: وما ذلك؟.

قالت المرأة: أمَا سمعتَ الله يقول:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[النساء: ٢٠-٢١].

صادقة: الله أكبر، ما أروع الإسلام الذي ربّى بناته هذه التربية.

الشيخ: فقال أمير المؤمنين عمر:

«اللهمّ غفراً، كلُّ الناس أفقهُ من عمر».

ثم صَعِدَ المنبر فقال:

«أيّها الناس. إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربع مئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحبّ، فليفعل».

صادقة: الله أكبر ما أروعكَ يا أمير المؤمنين.

صادقة: وما أروعَ الإسلامَ الذي ربّى أميرَ المؤمنين.

الشيخ: وهذا يدلّ بوضوح، على أنّ سلطة الحاكم لا تمتدُّ شرعاً إلى تحديد أكثر المهر.

صادق: وأقلّه؟.

الشيخ: لا . . أقلُّ المهر محدَّد بقول النبيّ عليه الصلاة والسلام:

«أقلُّ المهر عشرة دراهم».

صادق: والحكمة من هذا يا سيّدي؟.

الشيخ: في عدم تحديد أكثر المهر، حمايةٌ قوية للنساء، ورحمة لهنّ، وفتحٌ لباب تكريمهنَّ بما يحبّ أزواجهنّ دون أيّ مانع أو عائق.

صادق: ولكنْ.

الشيخ: أعرف ما تريد أن تقول يا ولدي.. لذلك أقول: على الناس أن يدركوا أنهم إذا غالوا في المهور، فسوف يقلّ المقبلون على الزواج الذي فيه الصّيانة والحصانة، فتشيع الفاحشة، ويفشو المنكر.

صادق: عظيم.. ثمّ ماذا من أمر المرأة في الجاهليّة يا سيّدي؟.

الشيخ: كانوا - في الجاهلية - يحرمون المرأة من حقها في الميراث، كما يحرمونها من التصرف بأملاكها الخاصّة بها، فبدّد الإسلام هذا الظلم، وأكدّ حقّها في الميراث، وفي التصرف بأملاكها كما تشاء، كالرجل تماماً، ضمن الدائرة المشروعة طبعاً للتصرف.

صادقة: الحمد لله.

الشيخ: قال عمر رضي الله تعالى عنه:

«والله كنّا في الجاهلية ما نعدُّ النّساء، حتى أنزل الله فيهنّ ما أنزل، وقَسَمَ لهنّ ما قسم».

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

صادق: يا سلام! ما أعظم الإسلام!.

الشيخ: وجاءت امرأة الشهيد سعد بن الربيع - رضي الله عنهما - بابنتيها إلى رسول الله.

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : فقالت : «يا رسول الله . هاتان ابنتا سعد بن الرّبيع ، قُتل أبوهما معك يوم أُحُدٍ شهيداً، وإنّ عمَّهما أخذ مالهما ، فلم يدع لهما مالاً ، ولا تتزوجان إلا ولهما مال» .

صادقة : أعوذ بالله . فماذا كان تصرّف النبيّ الكريم يا جدّي؟ .

الشيخ : قال النبيّ الكريم : «يقضي الله في ذلك» .

ثمّ نزلت آية الميراث ، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمّهما ، وقال له : «أعطِ ابنتي سعد الثلثين ، وأعط أمَّهما الثمن ، وما بقي فهو لك» .

فهتفنا أنا وصادقة :

ـ الله أكبر . . الله أكبر . . ما أعدل الإسلام ! .

ولمّا رأى الشيخ حماستنا وفرحنا بهذه المعلومات الجديدة علينا ، تابع يقول :

ـ كان الرجال في الجاهلية يرثون النساء كأنهنّ مال أو متاع ، كما كانوا يتصرّفون بزواجهنّ وكأنه تركة من جملة ما ترك الميت لهم ، فأبطل الله تعالى هذا الظلم بقوله الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾[النساء : ١٩]

قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية :

«كانوا إذا مات الرجل ، كان أولياؤه أحقَّ بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوّجها ، وإن شاؤوا زوّجوها ، وإن شاؤوا لم يزوّجوها ، وهم أحقُّ بها من أهلها» .

فعلّقت صادقة بقولها :

ـ الله أكبر . . شتان مابين الجاهلية والإسلام . . بين الجاهلية القاسية الغليظة الميّتة القلب ، وبين الإسلام العادل الرحيم الشفّاف .

وقال فضيلة الشيخ:

ـ هذه نماذج ياأولادي، تريكم مبلغ احترام الإسلام للمرأة، وحياطته إياها، وتوفيته حقّها، وصدق الله ورسوله، وكذب الأفّاكون الذين يذرُّون الرّماد في العيون، ويقلبون الحقائق، ليهدموا المعاني الإسلاميّة في نفوس السُّذَّج والبُسَطاء. ولكنْ.. خسئوا، فإنّ الإسلام أمتن من أن تناله أيديهم بالتهديم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قلت لفضيلة الشيخ:

ـ هل تعبتَ يا سيّدي؟.

هل أثقلْنـا عليك؟ ففي النفس أسـئلة كثيرة أحبُّ أن أتلقّى أجوبتها منك.

ابتسم الشيخ ابتسامة لطيفة وهو يقول:

ـ يبدو أنكم لا تثقون بشباب شيخكم وجدّكم.. سَلُوا ما شئتم، فأنا من ورثة النبيّ الكريم، عليه وآله الصلاة والسلام، وهو القائل:

«من كتمَ علماً عن أهله، أُلجمَ يوم القيامة لجاماً من نار».

وأنتم، فيما أحسب، من أهل العلم. وقال عليه وآله الصلاة والسلام:

«مَنْ كتمَ علماً ممّا ينفع الله به الناسَ في أمر الدِّين، ألجمه الله يـوم القيامة بلجامٍ من نار».

هذه التهديدات ـ يا أولادي ـ عملتْ عملها في نفسي، فدفعَتني إلى البيان دفعاً، فراراً من لعنة الله إلى رحمته، وإنقاذاً لمهجتي من عذابه الأليم، وعقابه العظيم.. دفعتْني في الماضي، وتدفعني الآن، وأنا مستعدٌّ للإجابة عن كل ما يخطر على بالكم من أسئلة، مهما طال الزمن، فاطمئنّوا، واسألوا جدَّكم الشيخ.

فرحْنا كثيراً لهذا الكلام، وللحيويّة التي رأيناها فيه، فسألته:

ـ من هو المسلم يا سيّدي؟ .

أجاب الشيخ الوقور:

ـ المسلم هو الذي يقرّ بالإسلام، ويعترف بوحدانيّة الإلـه سبحانه، وبصدق الرسالة المحمديّة، وعمومها إلى الخلق كلّهم، ولا ينقض إقرارَه هذا بشتم مقدَّس، أو إنكار أمرٍ معلومٍ من الدِّين بالضرورة.

سـألت الشيخ العالم عن معنى كلامه هذا (إنكار أمر معلوم من الدِّين بالضرورة) فأجاب:

ـ هو الذي يستوي في العلم به الخاصُّ والعامُّ، كحرمة الخمر والرِّبا والزِّنى. . أقول: من كان كذلك فهو مسلم، وإنْ فرَّط في العمل وقصَّر، فإن الإيمان غيرُ العمل. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧]، والعطف يقتضي المغايرة من حيث الأصل.

ـ كيف؟ .

ـ يعني. . عندما تقول: حضر محمدٌ وعليٌّ، فهذا يعني أنّ محمداً غيرُ عليّ، هذا معنى قولهم: العطف يقتضي المغايرة. فالإيمان غيرُ العمل. ولكنَّ كمال الإيمان والإسلام أن يكون هناك عملٌ صالح. فالإيمان الكامل إقرارٌ باللسان، وتصديق بالجنان (أي القلب) وعملٌ بالأركان.

صادقة: والمذنب غير التائب؟ .

الشيخ: هو في مشيئة الله تعالى. . إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. لكنّ آخر أمره الخروج من النار، والمصير إلى الجنة.

صادقة: يعني. . لا نكفّر مسلماً بذنب؟ .

الشيخ: أجل يا ابنتي. . فنحن ـ مَعْشَرَ أهل السّنّة والجماعة ـ لا نكفّر مؤمناً بذنب، إلا إذا أنكر أمراً قطعيّاً في الإسلام، فإنه يكفر من حيث إنّه ثابتٌ يقيناً عن النبيّ عليه وآله الصلاة والسلام، ومَنْ كذّبه في أمرٍ واحد، فهو

كمن كذّبه في كل الأمور، لأنّ العقيدة لا تتجزأ، بل هي وحدة واحدة.

صادق: وإذا أنكر أمراً غير قطعيّ؟.

الشيخ: إذا أنكر أمراً غير قطعيّ، أي لا يعلمه كلُّ الناس، بل يخفى على كثير منهم، فإن كان إنكاره مع استهزاء بالإسلام، كان كفراً، وإن كان مع الأدب، كان بدْعة محرَّمة، وفسقاً كبيراً، إلا أنه ليس كفراً. فالكفر مَرَدُّه إلى تكذيب النبيّ - عليه وآله الصلاة والسلام - فهو، مهما تعدّد وتنوَّع، شيء واحد. ولذا كان الكفر مِلَّةً واحدة.

صادقة: ما الفرقُ - إذن - بين المؤمن والكافر؟.

الشيخ: الفرق في التصديق وعدمه؛ فمن صدَّق وأقرَّ فهو مؤمن مسلم، ومَنْ كذَّبَ فهو كافر خاسر.

صادق: عفواً سيِّدي الشيخ... هل نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم لفظُ الله سبحانه وتعالى؟.

الشيخ: لا.. لا يقال: إن القرآن لفظ الله عزَّ وجلّ.

صادقة: لماذا يا جدّي؟.

الشيخ: لأن اللفظ يستدعي مخارج حروف، وهذه المخارج إنما تكون في الأجسام. والله سبحانه ليس جسماً، تعالى وتنزّه، لكننا نقول: القرآن كلام الله، أنزله على قلب نبيِّه الكريم ﷺ، وإنّ نظْمَ القرآن ومعناه من الله تعالى، والنبي - عليه وآله الصلاة والسلام - كان يستمع إلى سيِّدنا جبريل الأمين - عليه السلام - كما أمره الله، فإذا هو بعد انقضاء الوحي مجموعٌ في قلبه الشريف: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

صادق: لماذا هذا النهيُ عن تحريك لسان النبيّ الكريم ﷺ بالقرآن يا سيّدي؟.

الشيخ: لأنّ النبيَّ - عليه وآله الصلاة والسلام - كان أولاً يحرّك به

لسانه الشريف وقت إلقاء الوحي، فأمره الله باتباع قراءة جبريل عليه السلام إذا قرأه بأمر الله، وضمن الله له أن يجمعه كلَّه في قلبه الشريف.

صادقة: ما الفرق بين الأحاديث القدسيّة والأحاديث النبويّة الأخرى يا جدّي؟.

الشيخ: هي كلُّها من ألفاظ النبيّ ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ ولكنّ الأحاديث القدسيّة خطاب من الله تعالى لخلقه.

صادق: هناك بعض المسلمين يزعمون أن في القرآن الكريم غناء عن الأحاديث النبوية.. ما رأيك يا سيِّدي بهؤلاء أو بمزاعمهم؟.

الشيخ: فكرة الاكتفاء بالقرآن العظيم، وهجران الأحاديث النبويّة الشريفة، فكرة خاطئة في ذاتها، إلا أنها وجدتْ لها أنصاراً في بعض القلوب التي تنظر في الأمور من وجه واحد، وليس لها من المتانة العلميّة ما يؤهّلها للبحث في الشيء من جميع نواحيه. ثمّ إن هذه الفكرة السّيِّئة تزعزع الإسلام، وتقوّض دعائمه، وهي ـ لو طُبِّقتْ ـ لصيَّرتنا إلى فوضى دينية لا نستطيع معها إبصار وجه الصَّواب، ولا إدراك أكثر الحقائق الشرعيّة. وقد تبدو هذه الفكرة، لأوّل وَهْلة، صالحة في نظر السُّذَّج الأغرار، لأنّ فيها رفعاً لقدر الكتاب العزيز، ولكنها، في الحقيقة، زيفٌ مبهرج.

صادقة: لماذا يا جدّي؟.

الشيخ: لأنها تنقض الكتاب العزيز، وتنقض آياته الكريمة.

صادقة: كيف؟.

الشيخ: إليكم البيان:

لم يكن النبيُّ الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: مبلِّغاً للقرآن فحسب، كلا. فقد كان، مع هذا، يبيِّن مجمله، ويوضِّح مُشْكله، ويخصّص نصوصه العامّة، ويقيّد المُطلَقَة منها. وقد دلَّتْ

آياتُ الكتاب العزيز على اعتباره - عليه الصلاة والسلام - أصلاً تشريعياً بقوله وفعله وتقريره. وحسبُنا دلالةً على هذا، قولُه تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

النبيُّ - عليه وآله الصلاة والسلام - سراج منير، أنَّى سار أنار، وحيثما اتّجه أضاء. قولُه شرعٌ، وفعلُه شرعٌ، وتقريره شرع. وقد ضُبطتْ أحواله - ﷺ - قولاً وفعلاً وتقريراً، ونقلها أصحابه - رضي الله عنهم - وتناولها الأئمة المجتهدون درساً وفهماً واستنباطاً، وهم - حين عملوا بها، على أنها أسٌّ ثانٍ بعد الكتاب - غيرُ حائدين عن الصواب، ولا مبتعدون عن الحقّ؛ لأنهم عاملون بتعليمات الله تعالى في كتابه.

صادقة: إذن.. لم يكن - عليه الصلاة والسلام - في قوله أو فعله أو تقريره إلا صادراً عن وحي الله.

الشيخ: طبعاً.. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٣-٤].

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

وقد آتانا - عليه وآله الصلاة والسلام - كثيراً من الأحكام الشرعية، وما علينا إلا القبول والطاعة، كما طلب الله منا. قال الله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وقد بيّنت السُّنّةُ الشريفة هذا الكمال للدين، بما شرحتْ من آيات،

وفسّرتْ من نصوص. والكتاب الكريم حوى علم كلّ شيء دينيّ من حيثُ الأصلُ، حسبما دلّ عليه قولُه تعالى:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

ولو لم يقم النبي ﷺ بالبيان والشرح والتفسير لاستغلقت الأفهام عن إدراك مرادات الله من بعض آياته الكريمة، لكنه ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ حقّق قول الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

قال الإمام الشافعيُّ رحمه الله ورضي عنه:

«إنّ كلَّ فريضة فرضها الله تعالى في كتابه، كالحجّ والصلاة والزكاة، لولا بيان رسول الله ﷺ لها، ما كنّا نعرف كيف نأتيها، ولا كان يمكننا أداء شيء من العبادات».

صادقة: يا سلام!.

وتحرّك الشيخ في مقعده حركة سريعة نزقةً، ثمّ تابع يقول في حماسة:

ـ أنشدكم الله ـ يا معشر المنصفين ـ كيف نقيم الصلاة لو لم نأخذ بقول الرسول ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ وبفعله؟ فهو الذي بيَّن لنا كيفيّتها، وهو الذي أوضح لنا سجودها وركوعها، وخشوعها وخضوعها، وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها. هو الذي بيَّنَ لنا ما فُرض من الصلوات وما سُنّ، وصلَّى وقال:

«صلُّوا كما رأيتموني أصلّي».

والزكاة؟ كيف نؤتي الزكاة؟ وما هي الزكاة أولاً؟ وما مقدار ما تجب فيه الزكاة منها؟ وما هي المدّة التي تجب فيها الزكاة؟ وما مقدار ما تجب فيه الزكاة؟.

وما هي المدّة التي يتجدّد بتجدّدها الوجوب؟ .

ما هو الجواب على هذه الأسئلة، لولا بيانات رسول الله ﷺ؟ .

ومثلُ هذا يقال في الصَّوم والحجّ والكفّارات والنُّذور والأيمان والنكاح والطلاق والمهور والحضانة والنفقات وسائر الأحوال الشخصية، وكذلك المعاملات.

فأيُّ فساد كبير كان يعمّنا لولا إرشادات الرسول ﷺ؟! .

أيُّ خطر كنّا نُستهدف له لو تحققت للمفسدين أهواؤهم، وليس تحقّقها إلا القضاء على الإسلام.

ونهض الشيخ الجليل ثم قال بعنف:

ـ خسئوا.. وخسئوا.. فهو باقٍ على رغم أنوف الجاحدين.

صادق: إنهم يشككون بصحة الأحاديث الشريفة يا سيِّدي، ويحتجّون بكثرة الوضّاعين للحديث، وبأنّ النبيَّ الكريم نفسه نهى عن كتابة الحديث، وبأنّ تدوين الأحاديث كان على رأس المئة الأولى للهجرة، و..

الشيخ (مقاطعاً): كفى كفى.. سأجيبك على مزاعمهم وشكوكهم.

أمّا أنّ الوضّاعين كثر، فهذا مما لا خِلاف فيه، كما لا خلافَ أيضاً في وفرة عدد الرُّواة المتقنين الثّقات العُدول الذين حذقوا صناعة الحديث، وأتقنوها، وحاطوا حديث رسول الله ﷺ بسياج متين، يعسر على الأفّاكين اختراقُه.. إنّ الله أراد حفظ الشريعة، فقيَّض للحديث نُقّاداً ذوي علم وبصائر، نقدوا الرواة، وبيّنوا أحوالهم، وصنّفوا فيهم كتباً ضخمة أوعبوها أسماءهم وصفاتهم، ومن ضبط منهم، ومن خلط منهم، ومن تغيّر آخراً، بعد أن كان ضابطاً.. وإنّ الناظر في مصنّفات أولئك الرجال الأفذاذ، يدهش من هذا الفضل الجمِّ الذي خصَّ الله به أمّة سيد المرسلين، عليه وآله الصلاة والسلام.. إنّ هذه الأمة امتازت بالإسناد.

صادق: ما هو الإسناد؟ .

الشيخ: هو نقلُ الثّقة عن الثقة حتى يبلغ به النبيَّ ﷺ. . خصَّها الله به دون سائر الملل التي في أسانيدها انقطاع كثير. ومع هذا، لا يقربون من أنبيائهم كقربنا من نبيّنا محمد ﷺ؛ فهم يقفون بينهم وبين نبيّهم أكثر من ثلاثين عصراً.

صادق: وماذا عن نهي النبيّ الكريم عن كتابة الحديث يا سيِّدي؟.

الشيخ: نهى النبي ﷺ عن كتابة الحديث. . هذا صحيح. . وكان هذا خشية اختلاط الحديث بالقرآن، ثم صدر الإذن فيه، فقد أمر رسول الله ﷺ بالكتابة لأبي شاه، وكتب عليٌّ بعض الأحكام، وكتب عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة من الحديث.

صادق: إذن. . دعوى منع الكتابة مطلقاً غير صحيح؟.

الشيخ: نعمْ غير صحيح، ولا نسلّم به. . ثمّ لمّا خاف المسلمون من ضياع السنّة، أمر عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث، فدوّنوه حفظاً له من الضَّياع، ونشط رجال الجرح والتعديل بعد ذلك لبيان صحيح الحديث وسقيمه، فأتوا بالعجب، وحفظوا لنا تلك الثروة العلمية الضخمة من أن تتبدد.

صادقة: هل تعطينا فكرة عن حجم الأحاديث النبوية يا جدّي؟.

الشيخ: قال البخاري رحمه الله:

«أنا أحفظ مئة ألف حديث صحيح، ومئتي ألف غير صحيح».

صادقة: ما شاء الله؛ فهو لم يستوعب كلَّ ما صحَّ عنده في صحيحه، بل استوعب غير الصحيح أيضاً!.

صادق: وغير البخاري يا سيِّدي؟.

الشيخ: الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله انتخب أكثر من سبع مئة ألف حديث صحيح، وكان يحفظ مليون حديث.

فهتفنا أنا وصادقة: الله أكبر. . الله أكبر. .

ثم قلت لفضيلة الشيخ العالم :

ـ زعم بعضهم أن الأحاديث الصحيحة لا تزيد عن أربعة آلاف حديث .

فتحرك الشيخ حركة سريعة في مجلسه ثم قال :

ـ ردَّ أبو زرعة الرازي على من زعم هذا بهذا الدّعاء اللطيف :

«من قال ذلك ، قلقل اللهُ أنيابه . هذا قول الزّنادقة . ومن يحصي حديث رسول الله ﷺ؟ فقد قُبض عليه الصلاة والسلام عن مئة وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ، ممّن روى عنه ، وسمع منه ، عليه الصلاة والسلام» .

نهضتُ نحو الشيخ العالم ، وطلبتُ منه أن يسمح لي بالسؤال عن بعض القضايا التي سبق أن تحدّث عنها في بداية الجلسة .

فرحّب وقال :

ـ قلت لكما : اسألا عمّا تشاءان ، ولا بأس من تكرار بعض الأسئلة .

فسألت الشيخ العالم :

ـ ما رأيكم ، يا سيِّدي ، في إشراك نيّة الدفاع عن الوطن والعرض والمال في نيّة الجهاد في سبيل الله إعلاءً لكلمة الله عزّ وجلّ؟ .

فأجاب الرجل العالم :

ـ الأصل في الجهاد أن يكون لله وفي سبيل الله ، إعلاءً لكلمته ، وتقريراً لأحكامه . وقد جاء في الحديث الشريف :

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله» .

ومهما كانت هناك نيّة دنيوية كجمع المال مثلاً ، فقد خرج الأمر عن أن يكون جهاداً دينياً في سبيل الله .

صادقة : يعني . . الدفاع عن أوطان المسلمين ليس في سبيل الله؟ .

الشيخ : إذا قصد الدفاع عن أوطان المسلمين كي تبقى لهم عزّتهم ،

وتسلم لهم ديانتهم، وتصان أعراضهم، ولا تُمتهن كرامتهم، ولا يستولي العدوُّ على أراضيهم وأموالهم، فيصيروا أذلّاء فقراء بين يديه - إذا قصد المجاهد بجهاده هذه المعاني الشريفة، فهو في سبيل الله، لأنَّ هذه المعاني مما تضمّنه إعلاء كلمة الله تعالى؛ لأنها عائدة على الإسلام بالحفظ والتأييد والصَّون للمسلمين عرضاً ومالاً ونفساً وكرامة، وبهذا كله، يتوفّر المجاهدون على عبادة الله، ويورثون الإسلام أبناءهم وحَفَدتَهم من بعدهم. وقد جاء في الخبر الشريف: أنّ منْ قُتل دون ماله فهو شهيد، وكذا النفس والعرض بالأولى.

صادقة: إذن؟.

الشيخ: إذن.. صفوة القول: إنّ باب النيّة الصالحة مفتوح، وإذا كان المرء ذا قصدٍ صالحٍ يقرّه الدِّين ويرضاه، فإنّ جهاده مقبول إن شاء الله، وليحذر المجاهد أنْ يكون جهاده جافاً خالياً من هذه المعاني السامية الشريفة التي هي من فروع الجهاد الدّيني الذي يقصد به إعلاء كلمة الله تعالى.

صادق: عفواً سيِّدي الشيخ.. ما حُكْمُ التدرُّب على استعمال السلاح، للجهاد في سبيل الله؟.

الشيخ: إذا كان الجهاد في سبيل الله فرضاً، فإن التدريب على استعمال السلاح فرضٌ أيضاً، لأنّ للوسائل أحكام المقاصد.

صادق: فهل تنصحني بالتدرّب؟.

الشيخ: الذي أراه لك ولأمثالك من الفتيان، أن تتدرب لتصبح لك نيّة الغزو في سبيل الله، فراراً من الوعيد الذي جاء في قول الرسول القائد عليه وآله الصلاة والسلام:

«من مات ولم يغزُ، ولم يحدِّث نفسَه بالغزو، مات على شعبة من النفاق».

هذا أولاً، وثانياً: لتكون قدوةً لغيرك من الشبّان، ثم إذا وقعتْ

حربٌ، ولم تكن قادراً، كنتَ معذوراً.

وتململت صادقة في مجلسها، ونظرتْ إليّ نظرة أفهم معناها، فقلت لها:

ـ سلي فضيلة الشيخ عمّا تريدين.

فأقبلتْ نحو الشيخ بوجهها، فيما كان الشيخ يغضّ من طرفه وقالت:

ـ ما رأيكم، يا جدّي العزيز، في تقبيل يد الأب والأم والعالم؟.

فابتسم الشيخ ابتسامته اللطيفة ثم قال:

ـ لا بأس في ذلك، على ألاّ تفعلوها معي..

تبادلتُ وصادقة النظرات، كأننا نقول لفضيلة الشيخ: «سوف ترى» ثم سألتُ العالمَ الجليل عمّا إذا كان أصحاب رسول الله ﷺ، يقبّلون يد الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال:

ـ وكانوا يقبّلون أطرافه كلّها ـ بأبي هو وأمّي ـ ولذلك لم ير العلماء بأساً في تقبيل يد العالم والسلطان العادل، بل إنّ الإمام سفيان بن عُيَيْنة قال مرة، وكان عنده الإمام عبد الله بن المبارك:

«تقبيل يد العالم والسلطان العادل سنة».

فقام عبد الله بن المبارك وقبّل رأسه.

فهجمتُ على يد فضيلة الشيخ وقبّلتُها، والشيخ يحاول سَحْبَها وتخليصها من بين يديّ، ثم قال الشيخ الذي بُوغتَ بتصرّفي هذا:

ـ وذكر الإمام النوويّ في (رياض الصالحين) عن صفوان بن عسال رضي الله عنه قال: قال يهوديٌّ لصاحبه: اذهبْ بنا إلى هذا النبيِّ (يعني محمداً ﷺ) فأتيا رسول الله، فسألاه عن تسع آيات بيّنات.. وأجابهم الرسول الكريم ﷺ، فأقبلا عليه، فقبّلا يده ورجله وقالا: نشهد أنّك نبيّ.

وأخرج الحاكم بسندٍ صحيح أنّ رجلاً أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال:

يا رسـول الله . أرني شـيئاً أزداد به يقينـاً . فقال : «اذهبْ إلى تلك الشـجرة فادعُها» . فذهب إليها فقال : إن رسول الله يدعوك . فجاءتْ حتى سلّمتْ على النبيّ ، فقال لها : «ارجعي» . فرجعتْ . . ثمّ أذِنَ للرجل ، فقبّل رأسـه ورجليه ، عليه وآله أفضل الصلاة .

وسألتُ فضيلة الشيخ العالم عن معانقة الرّجال فأجاب :

ـ معانقة الرجال بعضهم بعضاً جائزة إذا كان على كلٍّ من المتعانقين ثيابه ، فقد عانق النبيُّ ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ جعفرَ بن أبي طالب حين قدِمَ من الحبشة ، وقبَّل بين عينيه . . يعني جبينه .

وسـألتُ فضيلة الشيخ عمّا إذا كان بعض الصحابة الكرام يقبّل يد بعض ، فقال :

ـ نعمْ . . قبَّلَ أبو عبيدة بن الجراح يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقبَّلَ زيد بن ثابت يد عبد الله بن عبّاس وقال : هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا ﷺ .

وقال فضيلة الشيخ العالم :

ـ ثمّ . . نحن نعلم أنّ المؤمن أعظم حُرْمةً عند الله من الكعبة ، ومع هذا شرع لنا تقبيل الحجر الأسود فيها .

وتحركتْ صادقة في كرسيّها استعداداً للكلام كعادتها ، ثم سألتْ :

ـ هل قبّلتَ يد أحدٍ يا جدّي ؟ .

وأجاب الرجل التقيّ النقيّ :

ـ نعمْ يـا ابنتي . . إني لأقبّل أيدي أشـياخي الذين علّمونـي ، وبهـم تخرّجت ، وإني أسأل الله تعالى أن يجزيهم عن الإسلام وعني خيراً .

آمين .

وقالت صادقة :

الرسول الكريم ﷺ يقول :

«الجنة تحت أقدام الأمهات».

فهل معنى هذا، جواز تقبيل قدم الأمّ يا جدّي؟.

ـ أجلْ يا صادقة، وذلك اعترافاً بجميلها وإحسانها إلى الولد. وقد أمر رسول الله ﷺ رجلاً ببرِّ أمّه وقال له:

«الزمْ رِجْلَها، فثمَّ ـ أي فهناك ـ الجنة».

ـ الله أكبر! ما أعظم الإسلام ونبيَّ الإسلام!.

وقلت لفضيلة الشيخ:

ـ سمعت كثيراً عن الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالى، وأريد أن أسمع منك ـ يا سيِّدي ـ القول الفصل في هذا الرجل. فماذا تقول؟.

نهض الشيخ واقفاً، ولملم أطراف جُبّته الأنيقة، ومسح على لحيته الظريفة، وأشرق وجهه بنور الحبّ، ثم قال:

ـ على الخبير وقعتَ يا ولدي؛ فالإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله، وأغدق عليه غيوث الإحسان والكرم ـ هو سيِّدي، وأخي في الله، وأستاذي الذي أثّر في نفسي تأثيراً من نوع خاص، وله يدٌ في تكويني الشخصي.

صحبتُه في مصر سنين، وحديثي عنه ـ لو بسطته ـ لكان طويل الذيل، ولكانت كلماته قِطعاً من قلبي، وأفلاذاً من كبدي، وحُرَقاً من حرارة روحي، ودموعاً منهلّة منسجمة تشكّل سيلاً من فاجع الألم، وعظيم اللوعة.

ولكنني أكتفي بالإيجاز.. أكتفي بالقول: لقد بكيتُه كثيراً بعد استشهاده، ولا أزال أذكره حتى ألقاه في زمرة الصالحين إن شاء الله تعالى وتبارك.

إنه أخي قبل أخوتي في النَّسب، ولمّا وافاني نبأ اغتياله قلت:

إنّ موت ولديّ، ولم يكن لي غيرهما حينئذٍ، أهونُ عليّ من وفاة الأستاذ المرشد.

وكنتُ رأيت فيما يرى النائم، ليلة قُتل، ولا علمَ عندي بالذي حصل، رأيت أننا في معركة مع اليهود، وقد بدأ التقهقر في جندنا، حتى إني لأمشي منحنياً لئلا يصيبني رصاصهم، فاستيقظت واستعذتُ بالله من شرّ هذه الرؤيا. وفي النهار، ألقى إليّ بعض الناس الخبر، فكان وقعُه أشدَّ من شديد، وكان تأويل رؤياي.

ـ الله أكبر!. إلى هذا الحدّ كنتَ معجباً بالإمام البنّا يا جدّي؟.

ـ وأكثر.. واسمعوا مني هذه الكلمة، ولا بأس بروايتها عني، فهي كلمة حرّة نابعة من أعماقي:

«إنّ المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين، في مجموع الصّفات التي تحلّى بها، وخفقت أعلامها على رأسه الشريف».

ـ يا سلام! ما أروع هذه الشهادة من عالم تقي مجاهد بالشيخ حسن البنّا!.

الشيخ: وأنا لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين، وتدبير المدبّرين، وحنكة السائسين ـ لا أنكر هذا كلَّه عليهم من سابقين ولاحقين، لكنّ هذا التجمع لهذه المتفرقات من الكمالات، قلّما ظفر به أحدٌ كالإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.. لقد كان لله بكلّيّته؛ بروحه وجسده، بقالبه وقلبه، بتصرّفاته وتقلّبه.. كان لله، فكان الله له، واجتباه وجعله من سادات الشهداء الأبرار.

وسكت الشيخ لحظةً يتذكّر، ثم قال:

ـ حدّثني عالمٌ في مصر كانت له به ـ بحسن البنّا ـ صلة، قال لي:

«إنّ الإلحاد امتدَّ إلى مصر، وانتشر فيها، وغمر كثيراً من أوساطها، ولم يستطع الأزهر الشريف، ولا الجمعيات الدينيّة أن تردَّ سيله الجارف الهادم، حتى جاء حسن البنا، فدرأ (أي دفع) خطره، وأنجى من شرّه».

قال لي هذا العالم هذا القول، وكنت أرى بعيني توفيق الله لأصحابه، وقد كانوا، من قبلُ، في ظلمات، فأخرجهم منها إلى نور.

وأخرج الشيخ الجليل منديلاً نظيفاً من جيبه، مسح به دمعتين تحدَّرتا على خدّيه، ثم قال في شبه بكاء:

ـ لهذا ولأسباب لا تقلُّ عن هذا الذي ذكرت، قتلوا حسن البنا.

صادقة: والسباعي؟ ما رأيُك ـ يا جدّي العزيز ـ في الدكتور الشيخ مصطفى السباعي؟.

الشيخ: رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه..

ومسح الشيخ دمعة أخرى انسربت من عينه، ثم تابع يقول:

ـ مصطفى السباعي هو الشيخ صفا.. هو أخي وزميلي وصديقي وحبيبي، أحببتُه مذ عرفته، وما فارقتُه حتى لقي وجه ربِّه الكريم.. السباعي، يا أولادي، رجلٌ فذٌّ بين الرّجال، قلَّ نظراؤه بين الدعاة، وهو عالم عامل، قلَّ أن تجد له مَنْ يشبهه في دقة فهمه بعويص المسائل. وفي سعة اطلاعه، وفي وعي الواقع المعيش، ولقد تحمّل من الأعباء ما ناء به كاهله المتين، كما تحمَّل الكثيرَ من الأعداء في الداخل والخارج، حتى أقعده المرض، أو هكذا ظنّ المرض أنه يستطيع أن يقعده، ولكنّ السباعي الرائع كان فوق الآلام والأوجاع، وظلّ يعمل في ميادين الدعوة والعلم، حتى سبقني إلى لقاء الرّحمن الرّحيم.

صادق: ولكني سمعتُ..

الشيخ (مقاطعاً): أننا اختلفنا. أليس كذلك؟.

صادق: نعمْ يا سيِّدي.

الشيخ(في امتعاض باسم): لا تقلْ (نعم) يا بني.. قلْ (بلى) لأنّ (بلى) حرف جواب يجاب به عن النفي، ويُقصد به الإيجاب.

صادق: شكراً يا سيِّدي على هذه الملاحظة القيِّمة.

الشـيخ: اختلفتُ مع السّـباعي كما اختلفـتُ مع غيـره في عدد من القضايا العلميّة، ولكنّ اختلافنا لم يفسد لودِّنا قضيّة ـ كما قال من قال ـ. بقي أخي وصديقي وحبيبي، وقد بكيتُه يوم مرض، ويوم مات، وإن لم يمت ذكره وذكرياته في نفسي، فهو ملء النفس والعين، وملء القلب والعقل، وهيهات أن تلد النّساء مثلك يا أخي يا مصطفى، يا أبا حسّان.

واغرورقت عينا فضيلة الشيخ بالدّمع، فأرادت صادقة التخفيف من وقع ذكرى السباعي على نفسه، فقالت:

ـ ما الأمور التي كان لها آثار كبيرة في حياتك يا جدّي؟.

الشيخ: أبرزها، على العموم، وقوفي في وجه الإلحاد الذي كان قد فشـا بين الناس، وقد عملتُ جاهداً على ردّ أولئك الشاردين الملحدين المنحرفين إلى الجادّة، رحمةً بهم، واستخلاصاً لهم من مهاوي الشقاء.

صادقة: والثابتون على الإسلام؟.

الشيخ: عملتُ على تغذيتهم بالعلم الواقي، والمعرفة الدَّارئة، كي تقوى فيهم ملكـة المناعـة الإيمانيـة، فلا يجد الزَّيغ سـبيلاً إلى قلوبهم ليفسدها.

صادقة: وما السبيل إلى ذلك يا جدّي؟.

الشيخ: السبيل إلى ذلك، توضيح محاسـن الإسلام، بعرضه عرضاً جميلاً.

صادق: عن طريق الخطب المنبريّة يا سيِّدي؟.

الشيخ: الخطب المنبرية، والدروس الدينيّة العامّة والخاصّة تفيد إذا كان الخطباء والمدرّسون ممتلئين علماً ومعرفة وإخلاصاً لله سبحانه، وعملاً بما إليه يدعون. يضاف إلى هذا، نشرُ العلم عن طريق الكتابة بلغة قريبة من الأفهام، غير مستعصية عليها بدقّة التركيب، ووعورة التعبير، ليسلك سبيله إلى الأذهان والأفهام، ولا يبقى مخبوءاً في بطون الكتب، لا يطّلع عليه إلا أخصُّ الخاصّة من المحصّلين.

صادق: لقد أصبتَ ما في نفسي ونفوس غيري يا سيِّدي بكلامك هذا عن بعض الكتّاب الكبار.. الكتّاب الإسلاميين الكبار، من أمثال المرحوم مصطفى صادق الرافعي، والأستاذ محمود محمد شاكر.. فأنا وغيري من الشباب، نقرأ لهما الكتاب والمقالة والقصة والقصيدة أكثر من مرّة، فلا نفهم منها إلا القليل، مع أننا نحبُّهما، ونقتني كتبهما، ونباهي بهما..

صادقة: وما رأيُك، يا جدّي العزيز، بالكتابة في المجلات؟.

الشيخ: لا بأس بالمجلات العلميّة الدينية، شريطة أن يشرف عليها علماء أجلّاء، لئلا يطيش السّهم بشباب الكاتبين، فيخبطوا ويخلطوا ويسيئوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

صادق: آه لو سمعك بعض شبابنا اليوم يا سيِّدي؟.

الشيخ: ماذا عساهم أن يتصرّفوا؟.

صادق: إنهم، أو إن بعضهم، أو إن المغرورين منهم، وما أكثرهم، يُسْقِطون الكبار من حسابهم، ويستهينون بخبراتهم وتجاربهم وثقافتهم.

الشيخ: كفى يا بنيّ، فهذا نذير السقوط، وعلى علماء الدين ملاحظة أولئك الشباب، لإنقاذهم من هذه الفتنة الزاخرة، وقاية لهم من الزيغ والانحراف.. على العلماء أن يسعوا إلى أولئك الشباب، مع أن العكس هو الذي ينبغي أن يكون، من أجل ترشيدهم، ليقوهم من الضلال المُرْدي في المهالك.

صادق: أكثر هؤلاء الشباب - يا سيِّدي - يفتقرون إلى التربية البيتية.

الشيخ: هذا صحيح.. فليقم الرجل بواجبه في التربية، ولتقم المرأة بواجبها أيضاً، وليأخذوا أولادهم بالطهارة النفسيّة، والتزكية الروحية، والأدب الجم، والتوجيه الصحيح، وفي الحديث الشريف.

«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيته. الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرَّجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت

زوجها ومسؤولة عن رعيتها. وكلُّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته».

صادق: واقع المسلمين اليوم واقع متخلّف، ومنحرف، ومحزن.. انحرفوا عن الإسلام، وتمزّقوا شيعاً وأحزاباً.. فكيف السبيل للخلاص؟ ما العمل يا سيِّدي؟.

الشيخ: السبيل الوحيد هو الرجوع إلى الإسلام الأول العتيق فعلاً وقولاً، لا كالذي نرى؛ فقد كثرت الأقوال وقلّت الأفعال، وعظمت الفتنة التي تحدّث عنها الحديث الشريف بأنها تدع الحليم حيران، كنتيجة لفسق الشبان، وطغيان النّساء، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ورؤية المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف.

الإسلام العتيق الأول - يا أولادي - يأبى علينا هذا كلّه، وخصوصاً تحريف الحقائق الدينية، وتكييفها بما يروق للقلوب المريضة، والعقول الزائفة، تكييفاً تأباه النصوص، إذا أُخذتْ بفهم صحيح من سبيل سليم.. متى نخلص من هذا السُّوء الذي قلبَ معالمَ الحقِّ، فعبث بالنصوص والأحكام باسم الإسلام - نفرٌ.. فلنعملْ من أجل هذا الخلاص، بتصحيح الأفهام، والعودة السليمة إلى الإسلام ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤].

صادق: صدق الله العظيم.

واعتدل فضيلة الشيخ في مجلسه، ومسح العرق من تحت عمامته تاج رأسه، ثم قال:

- اسمعوني جيداً، وانقلوا كلامي إلى أبيكم ومعلّميكم ومشايخكم.

أخرج الخطيب البغدادي في الجامع وغيره، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إذا ظهرت الفتن - أو قال البدع - وسُبَّ أصحابي، فليُظْهِرِ العالمُ علمه، فمن لم يفعل، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً».

- يعني؟..

ـ يعني أنّ الله تعالى لا يقبل من ذلك العالم الذي يُخفي علمه ولا يظهره للناس، لا يقبل منه فرضاً ولا نفلاً. وقال عليه وآله الصلاة والسلام:

«إذا ظهرت البدع، ولعن آخرُ هذه الأمة أوّلَها، فمن كان عنده علمٌ فلينشره، فإن كاتم العلم يومئذٍ، ككاتم ما أنزل الله على محمد» ﷺ.

وقالت صادقة:

ـ وقد فعلتَ الفرض وقمتَ بالواجب والنّفل، يا جدّي، بما خطبتَ وكتبتَ ورددتَ على أباطيل القوم.

صادق: ولكنك، يا سيّدي، ما كنت تذكر أسماء المنحرفين الذين كنت تردّ عليهم.

الشيخ: فعلتُ هذا لسببين اثنين:

أولهما: هو أنّ القصد من الكتابة كان لتمحيص الحقّ مجرّداً، وتخليصه من أدران الأخطاء إن شاء الله تعالى، لا للتنكيل بالأشخاص، والتشهير بهم. وإني لأربأ بالعلم الديني أن يتخذه صاحبه أداة طعن في المخطئين، لمحض التشفي منهم، لحزازة نفسية، وحقد ذاتي.

صادق: وهذا ما نراه في بعض الكتّاب الذين يدّعون أنّهم دعاة إلى الله، وقد شهدتُ واحداً منهم، يحسب نفسه من الدعاة، وهو أستاذ جامعيٌّ وذو لحية بيّضها الشيب، شهدته ينقد بعض زملائه بحقد ولؤم وخسّة طبع، وكأنه يتشفّى منه، يكاد الحسد والحقد واللؤم يأكل أعصابه.

الشيخ: ادعُ له بالهداية يا ولدي، وبالشفاء من هذه الأمراض الخبيثة الفتّاكة، فهي لا تقلّ عن السرطان.

صادق: سمعت والدي يسمّيها جَرَباً نفسيّاً.

الشيخ: عافانا الله وعافى الدعاة خاصة، والمسلمين عامة منها.

صادقة: والسبب الثاني يا جدّي؟.

الشيخ : السبب الثاني في إغفالي أسماء من رددتُ عليهم ، هو أنّ رحمة الله قد تدركهم كلاً أو بعضاً ، فيتوبوا من الضلال ، ويثوبوا إلى الصواب .

صادقة : هذا تفكير عظيم ، وبُعدُ نظر ، قرأناه في حياة الإمام الشهيد رحمه الله .

الشيخ : وكم أدركتْ رحمةُ الله سبحانه وتعالى من ضالّين فاهتَدَوا ، ومن شاردين فأوقفهم على بابه الكريم . ولذلك كان رأي الإمام الشهيد رحمه الله تعالى على صواب ، وقد استفادت الدعوة كثيراً من رأيه هذا ، ومن آرائه الأخرى .

صادق : كم تحبّ الأستاذ البنا يا سيّدي ؟ .

فاغرورقت عينا الشيخ بالدموع وقال :

ـ ليتكم رأيتموه لعرفتم فيه المرشد الكامل ، والوارث المحمّدي .

وانتظر الشيخ لحظة حتى سكت عنه البكاء ، وهدأت نفسه ، ثم قال :

ـ ولكن رسائل السيد المرشد موجودة بين أيديكم ، فاقرؤوها مرة ومرّة ومرّة . . اقرؤوها جيداً ، وافهموها جيداً ، واعملوا بما جاء فيها من تعاليم ونصائح ، وخذوا آراءه السّديدة ، وطبّقوها في حياتكم ، في سلوككم ؛ فهي كلُّها مستمّدة من كتاب الله تعالى ، ومن سُنّة نبيّه الكريم محمد ﷺ .

وسألت صادقة عن أبرز صفات الإمام الشهيد التي حبّبته إليه ، وقرّبتْه منه ، ودعتْه إلى أن يدعو الناس إلى حبّه ، وإلى قراءة كتبه ، والانضمام إلى جماعته ، فقال :

ـ الإمام البنا ـ رحمه الله تعالى ـ عالم ربّاني ، ومجاهد كبير ، ومتّبع لما جاء في كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله الكريم عليه وآله الصلاة والسلام ، وهو الرجل الذي عرف زمانه ، واستقامت طريقته . . وعى زمانه وأهل زمانه ، وعرف ما فيهم من صلاح وطلاح ، وعرف مكايد أعداء الإسلام والمسلمين ، فتصدّى لها بما يلائم حاجات العصر ، فشكّل جماعته ، وبنى رجاله ، وأعدّهم للمواجهة ، وخاض بهم غمار مختلف الميادين ، فكانوا الدّعاة ، وكانوا

المجاهدين، الذين يرخصون كلَّ شيء في سبيل الله تعالى، كما كان أجدادنا المجاهدون رضوان الله عليهم. . لهذا ولعشرات الصفات النبيلة التي تمثَّلها شخصه الكريم. . أحبُّه. . وأدعو إلى حبّه، فهو الأخ، وهو المعلم، وهو الأستاذ، والمرشد، والإمام، وهو الشهيد إن شاء الله تعالى، وأرجو أن يجمعني الله به يوم القيامة، مع الصالحين والأبرار من عباده.

ـ آمين يا ربَّ العالمين.

أحسسنا ـ صادقة وأنا ـ أننا أثقلنا على فضيلة الشيخ الحامد، أبي المحامد، فقد ظهر عليه التعب والإعياء، وإن حاول أن يبدو متماسكاً أمامنا، فانتابنا الشعور بالذنب تجاه هذا العالم العامل مرشد الشباب، وموجّههم، فاعتذرت ممّا كان منا من إثقال في الأسئلة، ولكنه ـ رحمه الله وعفا عنه ـ أبى إلا أن يكون كريماً معنا حتى آخر لحظة من هذا اللقاء الذي كان وأنا بين النائم واليقظان، فقال:

ـ لا بدَّ أن تسألوني شيئاً قبل أن أغادركم.

فطلبتُ من فضيلة الشيخ أن يوجّه كلمة أو نصيحة للشباب، أحملها إليهم، وتحملها أختي صادقة لزميلاتها وصديقاتها وأخواتها، فقال:

ـ يا إخوتي ويا أبنائي وحفدتي.

أنتم في زمان زاخر بالشرور، مليء بالفتن، وقد اغترب الحقُّ فيه حتى عند أهل الإسلام، تصديقاً لما ورد من أنه «بدأ الدين غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء» وهم الذين يستمسكون بالحقّ، ويعضّون عليه بالنواجذ، ويأتمّون بالقرآن الكريم، ويُحْيُون سُنَنَ الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، ولا يقيمون وزناً لما يتّجه إليهم من لوم وتعنيف وإيذاء، بل إنهم ليرون كلَّ هذا عذباً في مرضاة الله سبحانه وتعالى.

يا أولادي!.

طريق السلامة معبّدة، لا زلل فيها ولا زلق ولا عوج، بل إنّ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، كما جاء في الحديث النبويّ الشريف،

فالاعتقاد الصحيح، والعمل الصالح، ومجانبة الفسق عن أمر الله سبحانه، كلٌّ أولئكم يوفّر السلامة، ويلقي ملتزمه في روضات الجنان، ويغمره في الرضوان.

يا أولادي!.

الاعتقاد الحقّ هو الأصل الأصيل، وهو الركن الركين، وهو الأول الأول، والعمل الصالح يقع ثانياً في المرتبة، فلترفضوا كلَّ فكرة يرفضها الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح، ولتحرّروا اعتقادكم فيما بينكم وبين ربّكم جلَّ وعلا على النحو الصحيح. والمنهج الحقّ الذي نهجه سيّدنا رسول الله ﷺ، وصحبُه والتابعون لهم بإحسان.

والقرآن الكريم - يا أولادي - لم يُبقِه الله في الأرض عبثاً، فهاهو ذا حيٌّ يُتلى، وتقام به الحُجَّة على الخلق. فلتعشقوا هذا القرآن الكريم، وليختلط حبُّه بدمائكم ولحومكم، حتى تجري مبادئه فيكم مجرى الدّماء في العروق، وحتى تسطع عليكم أنواره، ويغلبكم سلطانه، وتضمحلّ أهواؤكم في دعوته.

وإذا أضفنا إلى نوره الوهّاج نورَ السّنّة الشريفة التي شرحتْه، وهي أقوال النبيّ الكريم وأفعاله وتقريراته - تمَّ لكم العنصران اللذان بهما الهداية والسعادة والكرامة في الآخرة والأولى.

ولن يتمّ لكم هذا - يا أولادي وحفدتي - إلا بموجّهين ومشرفين من علماء الإسلام الذين شربوا من معين الشريعة حتى ارتووا، ثم عملوا بعلمهم، ثمّ دعوا إلى الله على بصيرة، لا يريدون من الناس جزاء ولا شكوراً، فإن ظفرتم - يا أحبائي - بعالم عامل تصحبونه، فنعمَ ما ظفرتم به، ومرحباً بالخير يجري على يده، فهو الوارث المحمّديّ الذي يقود إلى دار السلام بالسلام. اجلسوا إلى هؤلاء الفضلاء الذين إذا رأيتموهم ذكرتم الله والإسلام برؤيتهم، وسرتْ إليكم منهم الحال الشريفة التي تنهض بكم إلى معالي الأمور، وترفعكم عن سفاسفها.

السير بدون مرشد عالم قد لا يفضي إلى الغاية المرجوّة، فلا بدّ لكم

منه، فإذا فقدتموه، فالجؤوا إلى العمل بتعاليم الإسلام، مع الإكثار من الصلاة والسلام على سيّدنا رسول الله ﷺ، صلّوا عليه نحواً من ألف مرّة في اليوم على أقلّ تقدير، فهذا يقوم مقام المرشد من حيث بركاتُ روح الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، تعود على من يكثر الصلاة والسلام عليه وعلى آله، فتكون الروح الشريفة مربّية لروح المصلّي عليه، فيسلس قياد نفسه للشرع، وتزول عنها رُعُوناتها، وتذوب عنها أخباثها، وتتجه إلى العلم الصحيح، عن طريق الفهم الطيّب الذي يلقيه الله في النفس، فيكون التوفيق لها رفيقاً، والإسلام لها طريقاً.

يا أولادي!.

ليكن لكلٍّ منكم مجلسٌ مع ربّه سبحانه وتعالى، يتلو كتابه، ويذكره بما يشاء من صيغ الذّكر، فإنّ الذّكر يصقل القلوب، ويهذّب النفوس، وينعش الأرواح.. وما خيرُ المسلم إن كان جافاً لا يرقّ له قلب، ولا ينهمر منه دمع؟. إنّ قساوة القلوب تداوى بذكر الله سبحانه.

ولنستمع إلى قوله سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد: ٢٨ـ٢٩].

ولتكونوا ـ يا أولادي ـ مجتمعين إلى بعضكم، متحابين في الله، فقد جاء في الحديث الشريف: «يدُ الله على الجماعة، ومَنْ شذَّ شذَّ إلى النار» وجاء: «الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد».

إياكم ـ يا أحبابي ـ وتلطيخ شبابكم بالفواحش، ففي الحديث الشريف:

«ألا مَنْ سلمَ له شبابُه دخل الجنة» ولا تصافحوا النساء، وغضّوا أبصارَكم، وكونوا طاهرين مطهَّرين تفلحوا».

* * *